رسالة اليونسكو

يناير - مارس 2019

2019 : السنة الدولية للغات الشعوب الأصلية

أفكار: مقال
للكاتب و. ه. أودن
ينشر لأول مرة

منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

ISSN 2220-3540

اكتشفوا
رسالة
اليونسكو
وساهموا
في التعريف بها!

اشتركوا في
النسخة الإلكترونية

مجاني 100 %

http//ar.unesco.org/courier/subscribe

تصدر في 10 لغات

الإنجليزية والعربية والصينية
والإسبانية والإسبرانتو والفرنسية
والبرتغالية والروسية والسردينية والصقلية.

كونوا شركاء فاعلين، اقترحوا إصدار رسالة
اليونسكو في لغات إضافية.

اطلاع
وتقاسم

ساهموا بصفة فعّالة في إنجاح *رسالة اليونسكو*
بالتشجيع على ترويجها واستعمالها طبقا لسياسة
الاستعمال الحر للمنظمة.

اشتركوا في النسخة الورقية

• سنة واحدة (4 أعداد): 27 يورو • سنتان (8 أعداد): 54 يورو

وحيث أن هذه النشرية ليس لها غاية ربحية، فإن
سعرها يُغطّي فقط تكاليف طبعها وإرسالها.

عرض تفضيلي للاشتراكات المُجمّعة: 10% تخفيض
بداية من خمسة اشتراكات.

الرجاء توجيه أي طلب إلى:

DL Services – C/O Michot Entrepôts
Chaussée de Mons 77,
B 1600 Sint Pieters Leeuw, Belgique
Tél.: (+ 32) 477 455 329 E-mail: jean.de.lannoy@dl-servi.com

2019 – عدد 1 – تصدر منذ 1948

تصدر ***رسالة اليونسكو*** فصليا عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة. هدفها التعريف بالمثل العليا للمنظمة من خلال نشر تبادل الأفكار حول مواضيع ذات بُعد دولي ومتعلقة بالمهام الموكولة إليها.

تصدر ***رسالة اليونسكو*** بفضل الدعم السخيّ الذي توفّره جمهورية الصّين الشعبية.

المدير: فانسان دي فورني
رئيسة التحرير: ياسمينا شوبوفا
أمينة التحرير: كاترينا مركيلوفا
محرِّرة: شان سياورونغ
التحرير:
الإنجليزية: شراز سيدهفا
العربية: أنيسة البرّاق
الصينية: سون مين ودار الصين للترجمة والنشر
الإسبانية: ويليام نافاريت
الفرنسية: غبريال كازاجوس، مكلف بالمراجعة
الروسية: مارينا يرتسيفا
التحرير الإلكتروني: مالاهات إبراهيموفا
إخراج الصور: دانيكا بيجلجاك
تنسيق الترجمة والإخراج: فيرونيكا فيدورشنكو
مساعدة الإدارة والتحرير: كارولينا رولان أورتيغا

الإنتاج والترويج:
إيان دنيسون، رئيس وحدة النشريات
إيريك فروجي، مساعد رئيسي للانتاج
الإنتاج الرقمي:
دنيس بتزاليس، مصمم ومطور مواقع الكترونية
العلاقات مع وسائل الإعلام:
لايتيسيا كاسي، ملحقة صحفية
الترجمة: منير الشرفي، خالد أبو حجلة، نبيل السّخاوي
التصميم: كورين هايوارث
صورة الغلاف: © ماركو توكسيكو
الطباعة: اليونسكو
النشرات المشتركة:
البرتغالية: آنا لوشيا غيمارايس
اسبرانتو: تريزورو هوانغ ينباو
السردينية: دياغو كرايين
الصقلية: دافيد بالينو

الإرشادات وحقوق إعادة النشر:
courier@unesco.org
7, place de Fontenoy, 75352 Paris 07 SP, France

© UNESCO 2019

ISSN 2220-3540 • eISSN 2220-3540

مجلة فصلية حرّة الإقتناء، بترخيص من
Attribution-ShareAlike 3.0 IGO (CC-BY-SA 3.0 IGO)
(http://creativecommons.org/licenses/by-sa/3.0/igo/)
يعترف مستعملي محتويات المجلة بقبولهم شروط الإستعمال المنصوص عليها في نظام التوثيق المفتوح لليونسكو
http://ar.unesco.org/open-access/
يطبق هذا الترخيص حصريًا على استعمال النصوص. بالنسبة لاستعمال الصور، من الضروري توجيه طلب إلى اليونسكو للحصول على ترخيص مسبق.
إن التسميات وطريقة تصميم المعطيات الواردة في هذه النشرية لا تعبّر عن أي موقف لمنظمة اليونسكو حول الوضع القانوني للدول، وللأراضي، وللمدن أو المناطق، أو حول الهيئات الحاكمة، أو الحدود المرسومة.
تعبّر المقالات الواردة في هذه النشرية عن أفكار وآراء مؤلّفيها، وهي ليست بالضرورة آراء منظمة اليونسكو ولا تلزمها بأي شكل من الأشكال.

الافتتاحية

2019 | السنة الدولية للغات الشعوب الأصلية

«نأمل في صياغة موسوعة خاصة بنا حول كل ما يتعلق بشؤون المياه. فهل يتسنّى لكم مساعدتنا؟». ذلك هو الطلب الذي تقدّم به إلى اليونسكو، في منتصف السنوات 2000، وفد من مجتمع مايانيا الذي يعيش في غابة بوزاواس الاستوائية في نيكاراغوا. وقد التحقت هذه الغابة، المعروفة أيضا باسم قلب الممرّ البيولوجي لأمريكا الوسطى، بالشبكة العالمية لمحميات المحيط الحيوي التابعة لليونسكو سنة 1997. وبما أن المنظّمة أطلقت سنة 2002 برنامج أنظمة المعارف المحلية للسكان الأصليين (لينكس)، كانت الفترة مناسبة لبعث مشروع مبتكر: التسجيل الصوتي لمعارف السكان الأصليين قصد تجميع ونشر كل المعلومات المتوفّرة في مايانيا حول الأسماك والسلاحف. وفي سنة 2010، صدر كتاب في جزأين يضمّ أكثر من 450 صفحة، وبلغتين (مايانيا والاسبانية)، فكان تتويجا للمرحلة الأولى من مشروع أشمل حول معارف مايانيا المُتّصلة بالطبيعة بشكل عام.

سكان مايانيا كانوا على علم بأنهم إذا تباطؤوا في تدوين معارفهم، فسوف تؤول للانقراض شيئا فشيئا على غرار غابتهم التي تقلصت بفعل اقتلاع الأشجار المخالف للقانون وتطوّر الفلاحة المكثفة. وهذه الطريقتين لاستغلال الطبيعة تتناقض تماما مع الأسلوب التقليدي لحياة السكان الأصليين في محمية بوزاواس، الذي يستند على الصيد البري والبحري، وجني الغلال والخُضر، وعلى تربية المواشي في حدود الاكتفاء المعيشي.

ووفرت لهم اليونسكو المساعدة للحفاظ على معارفهم حتى يتمكّنوا من نقلها إلى الأجيال القادمة، ووضعها في متناول العلماء عبر العالم، وفقا للمهام الأساسية لبرنامج أنظمة المعارف المحلية للسكان الأصليين الذي يهدف بالخصوص إلى ضمان إدراج تلك المعارف في التعليم الرسمي وغير الرسمي وإلى إدماجها في النقاشات والسياسات العلمية.

وتوجد طريقة واحدة لنقل هذه المعارف التي تشتمل على معلومات أساسية حول سبل العيش والصحّة والاستغلال المُستدام للموارد الطبيعية، ألا وهي اللغة. لذلك، فإن المحافظة على لغات السكان الأصليين ـ ومن بينها عدد متزايد مهدّد بالانقراض ـ أمر حاسم، لا فقط من أجل الحفاظ على التنوّع اللغوي، وإنما أيضا التنوّع الثقافي والبيولوجي للعالم.

وإن كانت الشعوب الأصلية لا تُمثّل إلا 5% من سكان العالم، إلّا أنها تنطق بأغلبية لغات العالم التي يبلغ عددها 7000 لغة، وأنها «تمتلك، أو تحتلّ، أو تستغلّ 22% من مجموع أراضي العالم، وهذه النسبة تُمثّل بدورها 80% من التنوّع البيولوجي العالمي»، حسب ما جاء في كتاب مقاومة الارتياب، الصادر عن اليونسكو سنة 2012.

مع إعلان سنة 2019 سنة دولية للغات الشعوب الأصلية وإطلاقها رسميا في اليونسكو يوم 28 يناير، تُؤكّد المجموعة الدولية عزمها على مساندة الجهود التي تبذلها الشعوب الأصلية للمحافظة على معارفها وللتمتّع بحقوقها. ومنذ إقرار إعلان حقوق الشعوب الأصلية من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة في 13 سبتمبر 2007، تم تحقيق تقدّم كبير في هذا الاتجاه.

ورغم ذلك، فإن الطريق ما زالت طويلة حتى تتمكن الشعوب الأصلية من التخلّص من التهميش وتتجاوز العقبات العديدة التي تواجهها. إن ثلث الأشخاص الذين يعيشون في فقر مدقع عبر العالم ينتمون إلى تجمّعات السكان الأصليين. وحسب فيكتوريا تاولي-كربوز، المقررة الخاصة للأمم المتحدة لحقوق الشعوب الأصلية، لا زالت التشريعات التي سنت لصالح الشعوب الأصلية في العديد من الدول متعارضة مع عدة قوانين أخرى، وخاصّة منها القوانين المنظمة للفلاحة، والأراضي، والمحافظة على الغابات، والصناعات الغابية والمعدنية.

في هذا العدد، تخصص *الرسالة* ملف *زاوية كبرى* للشعوب الأصلية يحمل عنوانا مستلهما من مثل صيني: *«عندما تشرب الماء، فكّر في النبع»*، للتذكير بأن معارف السكان الأصليين هي منبع كل المعارف وتستحقّ أن توليها الحداثة مكانة بارزة. كما يمثل هذا الملف مساهمة في الاحتفال باليوم العالمي للغة الأم، يوم 21 فبراير.

فانسان ديفورني وياسمينا شوبوفا

المحتويات

29-6

زاوية كبرى

7 **لغات الشعوب الأصلية: معارف وآمال**
ميني ديغاوان

9 **نديجاما كويا شي إيني زازا**
أراسيلي تورس مورالس

10 **مانون باربو، كاميرا في القلب**
أجرى الحوار ساتورنان غوماز

13 **رابا نوي: دقّ ناقوس الخطر**
أجرت الحوار ياسمينا شوبوفا
وكارولينا رولان أورتيغا

16 **الإذاعة، وسيلة للبقاء**
أفيكسنيم كوختي وأنياس بورتالفسكا

18 **هند عمرو ابراهيم:**
دفاعا عن حقوق شعب مبورورو
أجرت الحوار دوميتيي رو

20 **التكنولوجيات**
المتقدمة على طريقة سيكو
جويل هيث، بمساهمة لوكاسى أراغوتيناك

23 **الحبل السرّي**
كيريتويا تومارا – تيكا وجيمس دوهرتي

24 **أرزّ وسمك وبطّ في تناسق مع البشر**
داي رونغ وكسيو دايوان

26 **شعب سامي جوكموك**
يتحدّى الحداثة
ماري رواي

28 **عودة إلى جزر لاو،**
وكل الأشرعة مفتوحة
فولونا تيكواديليماكوتو تويموس

37-30

زوم

في بلاد الأنهار المجنونة
الصور: بروتيك ساركر
النص: كاترينا مركيلوفا

45-38

أفكار

تأمّلات في الحرية والفن
ويستان هيوغ أودن

49-46

ضيفنا

عبد الله أحمد النعيم: حقوق الإنسان، والدولة العلمانية والشريعة اليوم
أجرت المقابلة شراز سيدهفا

58-50

الأحداث

51 **هوفهانيس تومانيان: شاعر ولوع بسرد القصص**
كريكور بِليديان

54 **النوروز: براعم يوم جديد**
سلفاتوري دونوفريو

56 **التصرف في حالة ارتياب: مسألة الأمن المائي**
هوارد س. ويتر

"لما تشرب الماء، فكّر في النبع"

رسم فني لزيندا، المُلقّبة بـ«الغرق»، من مجموعة «والا، النظرة الثانية»، 2015، للمصوّر الفرنسي باتريك ويلوك. زيندا أمّ بكر مُرضع ـ «والا» باللغة المحلية ـ تجبرها تقاليد الإيكوند (جمهورية كونغو الديمقراطية)،على العيش في عزلة تامة بعد الوضع. النساء الوالا يخضعن يوميًا إلى استحمام مُطوّل حتى يجلبن الانتباه.

© Patrick Willocq

لغات الشعوب الأصلية:
معارف وآمال

بقلم ميني ديغاوان

بالنسبة للشعوب الأصلية، اللغة ليست فقط علامة من علامات الهوية والإنتماء للمجموعة، وإنما هي أيضا وسيلة لنقل القيم الأخلاقية، وهي قيم حيكت على أساسها نظم المعارف التي سمحت لتلك الشعوب بالعيش في ارتباط بالأرض، والتي اتضح أن دورها كان حاسما في بقائها. وتبقى أساسية لضمان مستقبل الأجيال القادمة.

اللغات الأصلية في طور الاندثار في مناطق عديدة من العالم ويعكس وضعها وضع الناطقين بها. والسبب في ذلك يعود بالأساس إلى سياسات الدول. لقد تعمّدت بعض الحكومات فسخها من الخريطة من خلال تسليط العقاب على مستعمليها، كما حدث مثلا في الأمريكتين في الفترة الأولى من الاحتلال. وتواصل دول أخرى إلى يومنا هذا نكران وجود شعوب أصلية على أراضيها وتعتبر لغاتها مُجرّد لهجات لا قيمة لها مُقارنة باللغات الوطنية، مما يؤدي حتما إلى اندثارها.

ويكمن السبب الأول للوضع المأساوي للغات الأصلية في الخطر الذي يُهدّد وجود الناطقين بها.

أية تهديدات؟

ما يهدد بقاء الشعوب الأصلية بالأساس هي التغيّرات المناخية التي تضرّ أيما ضرر بالموارد الاقتصادية الضرورية لكسب العيش. بالإضافة إلى الأضرار الجسيمة التي تخلفها المشاريع المُسمّاة بـ«*مشاريع التنمية*» – على غرار السدود، والزراعات، والمناجم، وغيرها من أنشطة استخراج المواد من الأرض – وكذلك السياسات التي تُقاوم التنوّع وتُشجّع على التناسق. هناك نزعة مُتزايدة لدى الدول لتجريم الأصوات المغايرة مما يؤدي إلى تكثيف انتهاك الحقوق: ونحن شاهدون على الارتفاع غير المسبوق لعدد السكان الأصليين الذين يتعرضون للمضايقات والإيقافات والاعتقالات وحتى الإعدام بدون محاكمة لمجرّد تجرّئهم على الدفاع عن أراضيهم.

لكننا عند ذكر هذه التهديدات، غالبا ما نغفل تأثيرها على ثقافات السكان الأصليين وقيمها. فالشعوب الأصلية تستمدّ هويتها، وقيمها، ونظم معارفها من تفاعلها مع الوسط الطبيعي الذي تعيش فيه، من بحار وغابات. ولغاتهم ناتجة عن ارتباطهم بهذا المحيط، لأن طريقتهم في وصف ما يُوجد حولهم هي التي تضفي الطابع الخصوصي لنظامهم اللغوي. ولما يتغيّر هذا المحيط، تتأثر الثقافة واللغة.

شعب الإنويت، مثلا، يستعمل خمسين عبارة لوصف الثلج في مختلف حالاته. وبما أنها المادّة الطبيعية الرئيسيّة بالنسبة له، اكتسب معرفة دقيقة وحميمية لها. وكذلك الحال بالنسبة لمجتمع الإيغورو في حزام الفيليبين عندما يتكلم عن الأرز فتتنوّع الكلمات لتدل بكل دقة عن البذرة القابلة للزرع، والسنابل الناضجة قبيل الحصاد، مرورا بشكل الحبوب حال طبخها، والكحول المستخرج منها.

بإمكان التكنولوجيات الحديثة للإعلام والاتصال أن تُساهم في تحسين عملية تعلّم اللغات المحلية وأن تُصبح أداة للمحافظة عليها. لكن الأمر ليس كذلك، مع الأسف، لأن لغات الشعوب الأصلية التي تعتبر أقليات، كثيرا ما تتناساها سياسات المحافظة على لغات الدول.

ففي الفيليبين، مثلا، تشجع الحكومة على استعمال لغة الأم في المدارس، لكنها لا تُخصص التمويلات لتوفير المدرّسين أو الأدوات التي تسمح لأطفال السكان الأصليين بتعلّم لغتهم. فيؤول بهم الأمر إلى إتقان لغة أخرى وإتلاف لغتهم.

قيم مفقودة

بعد القبوع تحت التمييز لسنوات طويلة، انتهى الأولياء الأصليين إلى التسليم بوجوب تخيير اللغات السائدة لأطفالهم سواء للتواصل أو التعلّم، ليوفروا لهم أحسن الظروف للنجاح الاجتماعي. وبما أن لغتهم الأم بقيت محصورة في التخاطب بين الأشخاص المتقدمين في السن، لم يعد الأحفاد قادرين على التواصل مع أجدادهم.

على سبيل المثال، يوجد في مجتمع الإيغورو مفهوم يدعى «*إنايان*» الذي يحدّد بالأساس السلوك الذي يجب توخّيه في مختلف الوضعيات، و يُلخّص علاقة الفرد بمجموعته وأسلافه، ولا يكتفي بالتحريض على السلوك المستقيم، بل يُنبّه إلى أن «*الأرواح أو الأسلاف لا يستحسنون*» السلوك الخاطئ. وحيث أن العديد من الشبان أصبحوا يجهلون لغتهم الأم، تلاشت هذه القيم التقليدية. إن غياب تواصل الشباب مع كبار السن آل إلى نتائج وخيمة، ليس على مستوى اللغة فحسب، وإنما أيضا على المبادئ الأخلاقية القديمة.

المحافظة على حيوية اللغات

إلا أن الاعتراف المتزايد على المستوى العالمي بنُظم معارف الشعوب الأصلية من شأنه أن يعيد إلينا الأمل في أن تسترجع لُغاتنا حيويتها وانتشارها، شفويّا وكتابيّا. وقد أنشأت العديد من المجموعات الأصليّة بنفسها أجهزة لإعادة إحيائها، على غرار ما قام به الآينو، في اليابان، الذين وضعوا نظاما يتولّى فيه القدامى تعليم لغتهم للشبان.

معارف الشعوب الأصلية وتغيّر المناخ

تُعد معارف الشعوب الأصيلة مصدرًا لا ينضب للطرق التقليدية التي تتم بها ملاحظة تطور المناخ في العالم والتدابير الكفيلة بالتكيف مع التغيرات المناخية التي اهتدت إليها الشعوب مع مرور الزمن. كيف يمكن لنا الاستفادة منها في النقاشات حول المخاطر البيئية التي نواجهها حاليًا؟

تقع هذه المسألة في جوهر كتاب «معارف الشعوب الأصلية لتقييم تغيّر المناخ والتكيّف معه» الذي نشرته منظمة اليونسكو بالاشتراك مع جامعة كامبريدج سنة 2018 (باللغة الانجليزية). ويؤكد هذا الكتاب على ضرورة الحوار بين علماء المناخ وأصحاب المعارف التقليدية من أجل فهم أفضل لبيئتنا في سبيل تحقيق التنمية المستدامة.

استنادًا إلى وثائق البحث وتقارير الخبراء، يتناول الكتاب المسألة من جميع نواحيها على المستوى العالمي، بدءًا من الممارسات البيئية الموسمية في ميلانيزيا والمعرفة المناخية في ميكرونيزيا وصولا إلى الشمال الغربي للأمازون وشياباس في المكسيك.

ثم يعرض الكتاب كيفية مواجهة الشعوب الأصلية لتغير المناخ في كل من خليج بلو مود في أستراليا، وفي شرق بابوا غينيا الجديدة، وفي جنوب غرب الصين، وفي جبال الأنديز البوليفية، وفي ساحل كينيا.

و فيه نقل لشهادات حول كيفية تعايش السكان الأصليين في جنوب غرب الولايات المتحدة وعلى ساحل نيكاراغوا الكاريبي مع الأحداث المناخية العصيبة، كما يشمل أحاديث لمربي الماشية، من القطب الشمالي إلى الأراضي شبه الصحراوية في جنوب غرب إثيوبيا وجنوب السودان.

كما يحتوي على أمثلة حول الأضرار التي يخلفها تغير المناخ في الدول الجزرية الصغيرة، وتأثيره على فلاحي جبال الأنديز الأمازونية وشعب الأنوبياك في ألاسكا، وكذلك الطرق التي يتبعها شعب ساميس في شمال السويد.
(انظر ص. 26).

هذا الكتاب المتعدّد الاختصاصات هو نتيجة للتعاون بين برنامج اليونسكو لأنظمة المعارف المحلية والأصلية، ومبادرة المعارف التقليدية التابعة لجامعة الأمم المتحدة، والهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ.

© Jacob Maentz

احتفال بنهاية موسم الحصاد في حقول الأرز بسلسلة جبال الفيليبين، أحد مواقع التراث العالمي لليونسكو.

كما أن مدارس التقاليد الحيّة، المفتوحة في مختلف التجمّعات الأصليّة بالفيليبين، سمحت بالمحافظة على حيوية اللغات وغيرها من الوسائل الثقافية القادرة على نقل القيم التقليدية للأجيال القادمة.

يساهم هذا العدد من *الرسالة* في دعم الجهود المبذولة على الصعيد العالمي لإيلاء اهتمام أكبر بلغات الشعوب الأصلية، ويمثل إضافة ثمينة للكتاب الذي نشرته منظمة اليونسكو بالاشتراك مع جامعة كامبريدج سنة 2018 تحت عنوان «معارف الشعوب الأصلية لتقييم تغيّر المناخ والتكيّف معه»، والذي يُؤكّد على الدور الحاسم للمعارف الأصليّة في مواجهة التحدّيات الكونية الجديدة.

ميني ديغاوان أصيلة فرقة كاكانا من شعب الإيغورو الذي يعيش في أحزمة الفيليبين. هي مديرة برنامج الشعوب الأصلية والتقليدية في منظمة المحافظة الدولية بفرجينيا (الولايات المتحدة). كما دأبت منذ سنين طويلة على النضال من أجل الاعتراف بحقوق الشعوب الأصلية واحترامها، وساهمت في أنشطة عديدة لأخذ القرار، من بينها صياغة إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية.

نديجاما كويا شي إيني زازا
ميشتاك المكسيك يتكلمون لغة الطبيعة

مجتمع الميشتاك في المكسيك على دراية، منذ زمن طويل، بكيفية معاينة العلامات المُنذرة بنزوات الأحوال الجوية، من خلال سلوك الطيور والنباتات. فهم يسمعون، على سبيل المثال، في أول نغمة رصينة وحزينة لعصافير الشيكوكو، إعلانا عن نهاية موسم الأمطار. طالما تواصل الشيكوكو أناشيدها، يعلم الفلاحون أن موسم الجفاف لم ينته، وأن وقت زراعة الفاصوليا والقرع لم يحن بعد.

ولمعرفة الوقت المناسب لزرع الذُرة، يعتمد الفلاحون على شجرة العرعر. فإن بدأت أوراقها تنتج غبارا، فذلك يعني أن فصل الأمطار سيتأخّر، وأنه لا بد من إرجاء موعد زرع البذور إلى منتصف شهر يونيو، وربما إلى ما بعد.

ذلك أن فصل الأمطار الذي يتواصل عادة من شهر مايو إلى شهر أغسطس في منطقة ميشتاكا باخا، أصبح يتأخر عن موعده عاما بعد عام خلال العشرية الماضية. وها أن المزارعين يرددون باستمرار هذه العبارة: *«نديخاما كويا شي إيني زازا»*.

> *ما يهدد بقاء الشعوب الأصلية بالأساس هي التغيّرات المناخية*

كلمة *«نديخاما»* تعني التغيّر. وكلمة *«كويا»* يمكن أن تكون لها عدّة معاني، ممّا يجعل لهذه العبارة دلالات مختلفة، إذ يُمكن أن تفيد الانتقال من شهر إلى آخر، أو من سنة إلى أخرى، أو من فصل إلى آخر.

أما كلمة *«إيني»*، فتعني الحرارة، ويمكن تصنيفها في لغة الميشتاك بإضافة أربعة نعوت: «لوو» (ضعيف)، *«كيفا كنديني»* (مقبول)، «كيني» (شديد)، *«زازا»* (لا يُحتمل). لكن الحرارة من صنف *«إيني زازا»*، التي كانت تُعتبر ظاهرة استثنائية، أصبحت تتكاثف باستمرار. ممّا دفع المزارعين إلى تعليلها بتغيّر المناخ. ما يُسمّى في منطق الخبراء *«التقلّب المناخي»*، ليس إلا *«نديخاما كويا»* في لغة الميشتاك.

كان مجتمع الميشتاك دوما في تناغم مع الطبيعة. يتقبّل اليوم، كما في الماضي، الاشارات المنبعثة عن الطبيعة ويعتمد عليها لاتخاذ القرارات المناسبة. وتحوي لغته جملة من المعلومات من شأنها أن تفتح السبيل نحو حلول للمشاكل التي يطرحها اليوم التغيّر المناخي.

بهدف تيسير الحوار بين الخبراء والضالعين في المعارف التقليدية، سوف تنشر اليونسكو خلال سنة 2019، في إطار برنامجها الخاص بنظم المعارف المحلية ومعارف السكان الأصليين (لينكس)، قاموسا للمصطلحات يحتوي على العبارات المرتبطة بالأحداث المناخية في منطقة ميشتاكا باخا، في لغة الميشتاك.

أراسيلي تورس مورالس *(المكسيك)*
أخصّائية في الألسنية.

مانون باربو

كاميرا في القلب

أجرى الحوار ساتورنان غوماز

يقال عن مانون باربو أنها تحمل الكاميرا في قلبها حينما يحملها غيرها في قبضتهم. تكرس مانون، منذ حوالي خمسة عشر سنة، كل حماسها وخبرتها في سبيل مشروع «وابيكوني» الذي يزود شباب مجموعات السكان الأصليين بأدوات متنقّلة للإنتاج السمعي البصري. وبفضل إنجاز أكثر من ألف شريط وثائقي، تم رفع الستار عن هذه المجموعات التي طالما شُوّهت سمعتها. لكن مكاسب مشروع «وابيكوني» تجاوزت السينما ... وتجاوزت حدود كندا.

كيف تبادرت إلى ذهنك فكرة الإهتمام بالشعوب الأصلية في كندا؟

خامرتني الفكرة منذ فترة الشباب. أعتقد أنني ورثت عن أبي اهتمامي بالصورة، وعن أمي روح النضال. أبي كان رسّاما، وكان من بين المُوقّعين الستة عشر على بيان *«الرفض الشامل»* سنة 1948، الذين عارضوا تأثير رجال الدين في كيبك رافعين شعار الحرية في المجال الاجتماعي. بعد افتراق والديّ، استقرّت أمي في الولايات المتحدة، حيث التزمت بالنضال من أجل حقوق السود.

وبعد مرور عدة سنوات، أردت أن أعرف ما آل إليه وضع أبناء ذلك الجيل، فأنجزت شريط أبناء الرفض الشامل. وقد اكتشفت من خلال تلك التجربة مدى قدرة الفنون، ولا سيما السينما، على التغيير الذاتي: عندما يُوظّف الفرد كل جهوده، كما فعلت، في شريط سينمائي، عند الانتهاء من التصوير، يشعر أنه لم يعد نفس الشخص الذي كان في بداية التصوير.

أردت تقاسم هذا الشعور مع من يحتاجه أكثر، وأعني المُهمّشين. فأعطيت الكلمة إلى شباب الشوارع وإلى المساجين، مانحة إياهم مرآتا من شأنها أن تعكس، بدلا عن صورة الأفكار المسبقة والخوف، صورة تسمح لهم بتخطي المعتاد والوصول إلى ما أبعد.

بعد ذلك، في بداية السنوات 2000، اتجهت نحو المُهمّشين الأكثر تهميشا، أي مجموعات السكان الأصليين في كندا.

حدثينا عن هذه التجربة الأولى؟

قرّرت كتابة سيناريو شريط سينمائي يحمل عنوان نهاية الاحتقار، بالاشتراك مع خمسة عشر شابّا ينتمون لمجموعة أتيكاميكو أصيلة ويموتاسي، وهي محمية تقع بين ماناوان وأوبيدجيوان، في موريسيا العليا (كيبيك). كنت مُعجبة بمواهبهم، واكتشفت حينها مدى عمق الجروح التي يحملونها، كما لو كانت أقساطا من إرث أليم ينتقل من جيل لآخر.

من بين الشباب المشاركين في كتابة السيناريو، فتاة تدعى وابيكوني أواشيش، تألقت بذكائها، وحيويّتها وسَخائها. كانت تُمثّل رمزا لمجموعتها. وفي يوم من الأيام، بلغنا خبر اصطدام سيارتها بشاحنة ناقلة لمنتوجات الغابات. وإذا بحياتها تُقصف من طرف أولئك الذين يقطعون الأشجار في أراضيها. كانت تبلغ من العمر عشرين سنة. يا لها من صدمة مروعة! وتخليدا لذكراها، قررنا إنشاء فضاء للتجمّع والإبداع خصيصا للشباب. فكانت نقطة انطلاق مشروع وابيكوني الذي تمّ إنجازه سنة 2004 من طرف مجموعة السكان الأصليين نفسها، بدعم من الديوان الوطني للفيلم وعدد من الشركاء من القطاعين العمومي والخاص.

منذ ذلك الحين، تم تجهيز عربات لتصبح استوديوهات متنقلة، لتَجوب كل أنحاء كندا. هل لك أن تشرحي كيف يجري هذا النشاط على الميدان؟

لقد أنجزنا أول وحدة مُتنقّلة للإنتاج السمعي البصري، وابيكوني الجوالة، في عربة يبلغ طولها 10 أمتار: أصبحت غرفة النوم غرفة لتركيب الأشرطة، وبيت الاستحمام ستوديو للصوت.

لدينا الآن خمس عربات، تتحرك بدعوة من المجموعات المحلية وقد عهدنا تأطير النشاط إلى سينمائيين مؤهلين للتكوين، ومُربين مختصين في العمل مع الشبان الذين يواجهون صعوبات، ومُنسّقين محلّيين لمساعدتنا على تحضير مهمتنا.

تدوم إقامتنا بين المجموعة شهرا. وخلال هذه الفترة الوجيزة، نقوم بانتاج معدل خمسة أشرطة قصيرة حول مواضيع يختارها الشبان أنفسهم. وفي نهاية العملية، تُعرض الأشرطة أمام أعضاء المجموعة. ثمّ تُعرض في مئات المناسبات والمهرجانات عبر العالم، ممّا يُساهم في إشعاع تلك الثقافة الثريّة، والتي غالبا ما بقيت مجهولة.

عمّ يتحدّث هؤلاء الشبان في أفلامهم؟

عن كل شيء! الحب، العائلة، الطبيعة، الأرض... الكثير منهم يتحدثون عن التقاليد، وعن هويّتهم، وعن التمزّق بين التقليد والحداثة. لكنهم يبتكرون أيضا أعمالا عصرية، مثلا مقاطع فيديو قصيرة حول المُغنّين المنتمين لمجموعتهم، وفي غالب الأحيان، بلغتهم الأصلية. أما الكبار، فهم ينتهزون الفرصة لنقل معارفهم أمام الكاميرا، بثقة تامة، بما أنّ أحفادهم هم الذين يقومون بمُحاورتهم وتصويرهم.

ورشة لتعليم تقنية إلتقاط الصور الفوتوغرافية انتظمت سنة 2017 لفائدة شباب من السكان الأصليين في بحيرة سيمون (كندا).

© Michael Dupont

© Véronique Lanoix

صورة ملتقطة على موقع تصوير فيلم ماديزين الذي أخرجه ادوارد بوكاشيش أصيل شعب أنيشنابه لبحيرة سيمون.

هل يجوز القول بأن هذه التجربة أحدثت تغييرا لدى الشباب؟

دون شك. هي عموما، تساهم في تثبيت اعتزازهم بهويتهم وثقافتهم. فيَنبعث فيهم الأمل من جديد في احتلال مكانة في المجتمع، تتعدى مكانة مجرد مستهلك. وهي أيضا فرصة للبعض منهم لاكتشاف ما يكنونه من مواهب للسينما أو للموسيقى، فيختارون مواصلة تكوينهم.

وهناك أيضا بعد تربوي لمشروع وابيكوني. إذ يعمل الفريق بالاشتراك مع الفاعلين المحليين للوقاية من التسرّب المدرسي، والإدمان على المخدرات، والانتحار، وذلك بتطوير الاعتداد بالنفس والاستقلالية.

هل يُمكن تطبيق هذا المنهج في تجمعات أخرى عبر العالم؟

نعم. ولدينا أكثر من دليل على ذلك. لقد تبيّن أن المنهج البيداغوجي الذي توخّيناه، والذي يتمثّل في التعلّم بالموازاة مع الابداع، قابل للتطبيق في مناطق أخرى من العالم، شريطة تكييفه مع الظروف المحلية. أقمنا شراكات في أمريكا الجنوبية (بوليفيا، والبيرو، وكولمبيا، وباناما، والشيلي).

كما عملنا مع سامي [انظر مقالنا ص. 26] في النرويج. وانتقلت مؤخّرا إلى بودابست لتطوير مشروع يهدف إلى إنهاء النفي المُسلّط ضد الشبان الغجر.

قمنا كذلك بدمج مجموعات أخرى تعاني من أوضاع هشة في برنامجنا، مثل المهاجرين السوريين في تركيا، أو التجمعات البدوية في الأراضي الفلسطينية وفي الأردن. وفي سنة 2014، أسست وابيكوني شبكة دولية للإبداع السمعي البصري للسكان الأصليين هدفها تبادل التجارب وتنمية الإنتاج المشترك.

بعد أن كرست طاقتك منذ مدة طويلة لصالح وابيكوني، ما هي حصيلة هذا المشروع حسب رأيك؟

على المستوى الفردي، أنقذ هذا العمل حياة بعض الأشخاص.أنا لا أدّعي ذلك، بل هذا ما يقوله الذين يعتبرون أن المشروع أنقذهم. على المستوى الجماعي، ساهم هذا العمل في بعث الأمل من جديد لمجموعات السكان الأصليين، واستعادة الثقة في أنفسهم، وإبرازهم وتوضيح صورتهم في الساحة الدولية. وأخيرا، أرى في وابيكوني كقافلة تتقدّم بتُؤدة، ولكن بثبات، نحو تحقيق حلم يُراودني منذ أمد طويل: ولادة سينما للسكان الأصليين.

مانون باربو (كند) كاتبة سيناريو ومُخرجة أفلام وثائقية. شاركت في تأسيس وابيكوني سنة 2004، مع مجلس أمة أتيكاميكو، ومجلس شبان الأمم الأولى، بدعم من الديوان الوطني للفيلم الكندي. حازت على العديد من الجوائز لأعمالها السينمائية والتزامها بالدفاع عن السكان الأصليين. في 18 نوفمبر 2018، أحرزت على جائزة اليونسكو-مادانجيت سينغ لتعزيز التسامح واللاعنف.

رابا نوي:
دقّ ناقوس الخطر

أجرت الحوار ياسمينا شوبوفا
وكارولينا رولان أورتيغا

في عزلتهم وسط المحيط الهادئ، بين سواحل الشيلي وتاهيتي، يستخدم شباب رابا نوي (جزيرة الفصح)، اللغة الاسبانية للتواصل مع العالم. ذلك أن الأغلبية الساحقة منهم فقدت استعمال اللغة الأم – الرابانوي – وهي لغة بولينيزية الأصل. لم يعد اليوم يتقنها سوى 10% منهم، مقابل 76% قبل أربعين عاما. ماريا فيرجينيا هاوا، العضوة بأكاديمية رابا نوي، تدق ناقوس الخطر.

لماذا يعتبر انقراض لغة ما، مشكلة في حد ذاته؟

لا يُمكن فصل اللغة عن نمط عيش المجتمعات، وعن أفكارها، ومشاعرها ومسرّاتها، إلى ما غير ذلك. لغتنا هي التي تُمكّننا من التعريف بهويتنا. يؤدي انقراض اللغة حتما إلى تهديد الأساس الاجتماعي والثقافي لمجموعة المُتحدّثين بها.

في جزيرة الفصح، فقدت لغة رابانوي دورها في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية لمجموعتنا. لقد تم استبعاد هذه اللغة البولينيزية من المصالح العمومية والأنشطة السياحية، وتم تعويضها بسرعة مُذهلة بالإسبانية، وكانت لذلك تداعيات وخيمة على قيم المجموعة.

لقد تمّ التخلّي عن الفلاحة العائلية لفسح المجال أمام استهلاك مواد وطنية وأجنبية، لا علم بمصدرها ولا بطريقة صنعها. في الماضي، كان الفلاحون منتبهين إلى مراحل ظهور القمر ليُحدّدوا موعد الزراعة ونوعيتها. لكن هذا الفن قد تلاشى اليوم.

© Eric Lafforgue

ألعاب في الهواء الطلق أثناء المهرجان التقليدي تاباتي رابا نوي، إحدى أكبر التظاهرات الثقافية في المحيط الهادئ التي تعبر مكانة خاصة لفنون السكان الأصليين (موسيقى ورقص).

مواي من بحيرة رانو راروكو. يحتوي حديقة رابا نوي الوطنية، أحد مواقع التراث العالمي لليونسكو، على حوالي 900 مواي، وهي تماثيل عملاقة منحوتةتعود للفترة بين القرن العاشر والقرن السادس عشر.

> *في جزيرة الفصح، فقدت لغة رابانوي دورها في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية لمجموعتنا*

واندثرت عدة ممارسات، مثل تقاسم المواد بين العائلات والجيران، الذي يشكل ضربا من تقاليد التضامن والتفاعل صلب المجموعة. كما تضاءل الحوار بين الأجيال. يُقضي الشباب وقته في ممارسة ألعاب الفيديو وفي مواقع التواصل الاجتماعي، ولم يعد لهم ما يكفي من الوقت لمقابلة الكهول والأجداد. وفي بعض الأحيان، الأولياء هم الذين يُهملون الأهمّ، أي توفير تربية لأبنائهم وبناتهم، ترتكز على ثقافتهم الأصلية، بسبب انشغالهم بنشاطهم المهني لتحسين رفاهيتهم المادّية.

ما مدى حيويّة لغة رابانوي حاليا؟

حسب تحقيق اجتماعي-لغوي أنجزته سنة 2016 كل من وزارة التربية في الشيلي واليونسكو، ينحصر نصف المتحدثين بلغة رابانوي في البالغين من العمر 40 سنة فما فوق.

بالنسبة للفئة العمرية ما بين 20 و39 سنة، تنزل النسبة إلى حوالي 35%. والأغلبية الساحقة للأولياء لا ينقلون اللغة الأصلية لأطفالهم. وبصفة عامّة، في حالات الزواج المختلط (رابانوي وآخر)، يستعمل أفراد العائلة اللغة الإسبانية يوميا.

أما عدد المُتحدّثين بلغة رابانوي الذين هم دون سن 18 سنة، فهو في تضاؤل مستمر. في سنة 1976، عندما اعتُمد تعليم اللغة الأصلية كمادّة من مواد البرنامج الدراسي، أصبح 76% من التلاميذ يتكلمون الرابانوي. وفي سنة 1997، تقلّصت نسبتهم إلى 23%. وتدنّت إلى 10% سنة 2016، وهو رقم مُفزع بالنسبة إلى كل من يهمه مستقبل لغتنا وثقافتنا.

ماذا فعلتم للحفاظ على التراث اللغوي؟

أنشأنا سنة 1990 صلب المؤسسة التربوية لورنزو بايزا فيغا، قسم اللغة والثقافة الرابانوي، بدعم من الهيئة المُكلّفة بتنمية السكان الأصليين التابعة لوزارة التنمية الاجتماعية [كونادي] ومن وزارة التربية.

أنتجنا في هذا الإطار، صحبة المُعلّمين الرابانوي بالمدرسة، نُصوصا لتعليم القراءة والكتابة وتدريس العلوم الطبيعية، والتاريخ والرياضيات، مُخصّصة لتلاميذ المرحلة الابتدائية.

وقد أنجزت أكاديمية رابانوي، منذ إنشائها سنة 2004، موارد توجيهية لمرحلة ما قبل الابتدائي وأعادت نشر نصوص لتعليم القراءة والكتابة للسنتين الأولى والثانية من التعليم الابتدائي. كما أنتجت أدوات إلكترونية تفاعلية تتناول مفاهيم ثقافية، ورياضية وهندسية.

وقامت الأكاديمية سنة 2011 بتحقيق للإعداد لبعث ثلاث مؤسسات تربوية أخرى وروضة أطفال عمومية في الجزيرة. وفي سنة 2012، ساهمت في تقييم القانون الذي تمّ اعتماده في 2011 والهادف إلى بعث قطاع للُغة السكان الأصليين في كافة المدارس التي يؤمّها تلاميذ الشعوب الأصلية في الشيلي.

ما هي مكانة اللغة على المستوى التربوي؟

عندما تمّ بعث التعليم الرسمي في الجزيرة، سنة 1934، لم تدرج لغة رابانوي في البرامج. كان التلاميذ يحفظون كل الدروس بالإسبانية عن ظهر قلب، دون أن يفهموا شيئا، ولم يكن لما يدرسون أي معنى بالنسبة لهم. علاوة على ذلك، كان عليهم حفظ مضامين لا تمت بأي صلة لواقعهم. على سبيل المثال، عندما يسمع التلاميذ جملة *«تشرق الشمس على سلسلة الكورديرا»*، لا يمكن لهم أن يعرفوا حول ماذا يحوم الموضوع، لأن لا أحد منهم شاهد أو سمع عن الكورديرا.

وبعد ثمان عقود، لا توجد سوى مؤسسة تربوية واحدة، لورنزو بيزا فيغا، لتأمين برنامج إدماج في لغة رابانوي، يغطي فترة التدريس الممتدة من السنة ما قبل الابتدائي إلى السنة الرابعة من التعليم الابتدائي (أي لصالح التلاميذ في سن تتراوح بين 5 و9 سنوات).

خلال ثمانية عشر سنة، أي منذ أن تم بعثه، تراوح مردود هذا البرنامج بين النجاحات والإخفاقات، حسب تغيير عدد الساعات المُخصّصة لتعليم الرابانوي. ذلك أن الإدارة المعنية بالمدارس كانت مُنشغلة بتحقيق تفوق التلاميذ في الاختبار الوطني، فكانت تضيف ساعات لتَدريس الرياضيات، واللغة، والتربية البدنية باللغة الاسبانية.

© Eric Lafforgue

وفي سنة 2017، أنشأنا المنظمة غير الحكومية *«نيد رابانوي»* التي تهتم بحوالي عشرين طفلا تتراوح أعمارهم بين السنتين والثلاث سنوات. هي منظمة مستقلّة، لكنها تتلقى دعما من الهيئات الحكومية لتسديد مرتبات المُربّيات وتحسين الهياكل الأساسية. كما حصلنا، سنة 2018، على دعم من جمعية السكان الأصليين البولينيزيين ماو هينوا، سهّل علينا تسديد مُرتّبات المُدرّسين. أُنشئت هذه الجمعية في شهر يوليو 2016 بهدف وضع نظام جديد لإدارة المنتزه الوطني الرابا نوي، المسجل على قائمة التراث العالمي لليونسكو.

والآن، نحن بصدد إعداد برنامج بيداغوجي لنيد رابانوي لإدماج أبعاد فلسفية خاصة بالثقافة المحلية، انسجاما مع هدف المنظمة، ألا وهو تحقيق مدرسة توفر تعليما كاملا باللغة المحلية.

هل يوجد العدد الكافي من المعلمين القادرين على التدريس بلغة الرابانوي؟

لا. قمنا بتشريك العديد من حكماء المجموعة والاستعانة بالمربين التقليديين. كل واحد منهم منحنا الخبرة التي حصل عليها في إطار عائلته. تلك الخبرة لا تقاس بثمن. لكنهم في حاجة إلى تكوين في مجالي التخطيط والمنهجية، بهدف تحسين تعليم المضامين الثقافية الرابانوية..

لمعالجة مشكلة النقص في عدد المُدرّسين، يجب، في اعتقادي، تحفيز الشباب على دراسة البيداغوجيا وتشجيعهم، عن طريق تكثيف إسناد المنح، على التسجيل في جامعات مثل جامعة وايكاتو في أوتيروا (نيوزيلاندا) أو جامعة هاواي في هيلو، نظرا لتجربتهما المرموقة في تعليم اللغات البولينيزية.

ماريا فيرجينيا هاوا عضوة مؤسسة لأكاديمية رابانوي في سنة 2004، وتولت إدارتها لحد سنة 2010. وهي حاليا رئيسة المنظمة غير الحكومية *«نيد رابانوي»*. كُلّلت جهودها من أجل إعادة إحياء الرابانوي بوسام الاستحقاق *«غابريالا ميسترال»* سنة 2004. كما شُهرت باسم فيكي هاوا كارديناليي.

الإذاعة، وسيلة للبقاء

بقلم أفيكسنيم كوختي
وأنياس بورتالفسكا

رغم كونها وسائل إعلام متميزة للدفاع عن حقوق الشعوب الأصلية، وبالرغم من الالتزامات التي تعهدت بها الدول، تبقى الإذاعات المحلية صعبة المنال. لذلك، اضطرت العديد من الإذاعات المحلية إلى اللجوء إلى ممارسة أنشطتها خارج الإطار القانوني.

في بعض المناطق من العالم، قد يمثل استعمال الميكروفون فعلا غير قانوني، تماماً كما قد يؤدي الدفاع عن حقوق الشعوب الأصلية إلى فقدان الحياة. في 21 سبتمبر، تم اغتيال خوانا راميريز سانتياغو، التي تنتمي إلى مجموعة إكسيل من شعب مايا. خوانا هي الضحية الإحدى وعشرين في صفوف النشطاء في مجال الدفاع عن حقوق الشعوب الأصلين، الذين قُتلوا في غواتيمالا عام 2018. وكانت هذه الناشطة من بين القادة ذوي الرؤية السياسية والإرادة لتغيير المجتمع، في سبيل ضمان حياة أفضل لأسرهم ومجتمعاتهم. وحسب معظم سكان غواتيمالا، سيظل اغتيال خوانا راميريز سانتياغو، شأنه شأن العديد من الإغتيالات الأخرى، دون عقاب.

أعربت فيكتوريا تولي كوربوز، المقررة الخاصة للأمم المتحدة المعنية بحقوق الشعوب الأصلية، والتي أدت زيارتين رسميتين إلى غواتيمالا خلال نفس السنة، عن بالغ قلقها إزاء أعمال العنف، وعمليات الإخلاء القسري وتجريم الشعوب الأصلية التي تدافع عن حقوقها وأراضيها. وفي معرض إشارتها إلى مقتل سبعة من قادة السكان الأصليين في مايو ويونيو 2018، [وقد ارتفع هذا العدد إلى إحدى عشر ضحية في يوليو من نفس السنة] صرحت المقررة الخاصة:

«كل الذين تم اغتيالهم كانوا من ممثلي منظمتين للمزارعين من السكان الأصليين يطالبون باحترام حقوقهم في ملكية أراضيهم ومشاركتهم في الحياة السياسية. وقد تم ارتكاب هذه الإغتيلات في سياق وطني عام اتسم بتضييق مقيت على الفضاء المخصص للمجتمع المدني». وجاء في تقريرها الذي عُرض على مجلس حقوق الإنسان في دورته التاسعة والثلاثين (10 ـ 28 سبتمبر 2018): *«وعلاوة على ذلك، ثمة تصاعد في الحالات التي أدت إلى فتح تتبعات جنائية ـ قد تُعد بالمئات ـ ضد قيادات وأفراد من السكان الأصليين في غواتيمالا. وتوجد هيئات من القطاع الخاص تسعى حثيثا للمطالبة بفتح تتبعات جنائية، مما يوحي بأن في بعض الحالات، هناك مدّعون عامّون وقضاة متواطئون مع الشركات ومالكي الأراضي»*.

دور الإذاعة

تدافع الإذاعات التابعة لمجموعات السكان الأصليين عن الحق في حرية التعبير للشعوب الأصلية. وتشكل هذه الإذاعات أفضل وسيلة لنشر المعلومات حول قضايا تلك المجموعات، وتكشف عن العنف الذي تتعرض له.

مجتمع مايا إيكسيل حريص على الدفاع عن هويته الثقافية واللغوية.

وهي سبّاقة في بث الأخبار حول الحوادث، وتقوم بإجراء مقابلات مع القادة المحليين حتى يدلوا بآرائهم حول ممارسات العنف.

وتساند الإذاعات علناً المدافعين عن الأراضي وحقوق الإنسان، وتقوم بتوعية الجمهور بشأن مسألة تجريمهم. وهذا ما تقوم به، على سبيل المثال، إذاعة *«سياب تزوول تاكا»*، في إلستور، التي ساندت العديد من الأشخاص الذي أُتهموا ظلما وأودعتهم الحكومة السجن بسبب أنشطتهم في مجال حقوق الإنسان والأراضي.

قانون بقي حبرا على ورق

في أمريكا اللاتينية، أدرجت دول عديدة في قوانينها حق الشعوب الأصلية في امتلاك وسائل إعلام خاصة بها. وعلى الرغم من أن الكثير من هذه الدول التزمت بتخصيص ترددات الموجات الإذاعية لهذه الشعوب، فغالبا ما يبقى التزامها دون تنفيذ.

وهناك العديد من الإذاعات الخاصة بمجموعات السكان الأصليين مرغمة على البث دون ترخيص، بعد أن قدمت طلبا للحصول على ترددات الموجات الإذاعية حسب ما يقتضيه القانون، كما يتعرض المتطوعون العاملون فيها لتتبّعات قضائية بسبب أنشطتهم الإذاعية.

في غواتيمالا، على سبيل المثال، حق الشعوب الأصلية في امتلاك وسائل إعلام خاصة بها مضمون في الدستور وفي اتفاقية السلام المُوقعة سنة 1996 عقب حرب أهلية دامت ستة وثلاثين عاماً. بيد أن رسوم الحصول على ترددات الموجات الإذاعية باهضة جدا ولا تقدر على تسديدها الإذاعات المحلية التي لا تستهدف الربح. وقد بلغت تلك الرسوم في عام 2003 مليونين من الكتزال (أي ما يعادل 274.000 دولار) للحصول على ترددات أف. أم. في مناطق تقع خارج مدينة غواتيمالا وكتزالتينانغو، ثاني مدينة في البلاد. أما التكاليف الحالية فهي ليست معروفة جرّاء توقف المزادات العلنية في السنوات الأخيرة، غير أن الذين يملكون الترددات ما زالوا يبيعونها بصورة غير قانونية. بالنسبة لصغار المزارعين، مثل هذا المبلغ يفوق بكثير قدر المستطاع. لمن يتراوح راتبه الشهري بين 80 و120 دولار، يبقى شراء ترددات موجات إذاعية حلماً بعيد المنال.

تحرير العقول

لقد تبيّن أن الإذاعة قادرة ليس فقط على تعبئة الشعوب الأصلية، بل وأيضا على التأثير في السياسات ومساءلة الحكومات. من ذلك أن المحطات الإذاعية تنظم مراجعات حسابية اجتماعية للإنفاق المالي الذي تنفذه السلطات البلدية في المجتمعات الأصلية.

كما أنها تنظم حملات بشأن التصويت الواعي. ففي الفترات الانتخابية، تدعو المترشحين للمشاركة في نقاشات على الهواء والرد على أسئلة المستمعين. ومن شأن هذا المجال العام، حيث يخضع السياسيون للمساءلة، أن يساهم في تقليل حيّز التلاعب بأصوات الناخبين.

إن وسائل الإعلام المحلية الخاصة بالشعوب الأصلية هي وسيلة فعالة لتحرير العقول، تتيح بعث الشعور بالفخر على الصعيدين الثقافي واللغوي. كما أنها تبرز الألوان الموسيقية والمعارف القديمة، فضلاً عن الأشكال التنظيمية المحلية المهددة في الوقت الراهن بفعل العولمة ورؤية العالم التي تفرضها التجمعات الإعلامية الدولية الكبرى.

كما أثبتت الإذاعة المحلية فعاليتها لاسيما في المناطق النائية بأمريكا اللاتينية، حيث يحول بلاء الأمية دون حصول السكان الأصليين على المضامين التي تنشرها الصحافة وحيث لا يمكن للنساء المسنّات اللاتي لا يتحدثن اللغة السائدة ــ في ما عدا أقلية قليلة – الحصول على المعلومات من خلال الإذاعات العامة.

وختاما، فإن بقاء اللغات الأصلية يعتمد إلى حد بعيد على الناطقين بها وقدرتهم على التحدث بها بطلاقة. ومن هذه الزاوية، يجب بل ويمكن أن تضطلع وسائل الإعلام الخاصة بالشعوب الأصلية بدور حاسم.

© Daniele Volpe

أفيكسنيم كوختي، التي تنتمي إلى مجموعة *«كيشي»* (غواتيمالا) مكلفة بإدارة البرامج، و**أنياس بورتالفسكا** (بولندا) مكلفة بالإعلام والاتصال في *«كلتشرل سرفايفل»* (www.cs.org) وهي منظمة غير حكومية معنية بالدفاع عن حقوق الشعوب الأصلية، يقع مقرها في كمبريدج بولاية ماساتشوستس (الولايات المتحدة) وتدعم منذ عام 2005 شبكة تضم أكثر من 800 محطة إذاعية للشعوب الأصلية عبر العالم.

اليونسكو والإذاعات المحلية الخاصة بالشعوب الأصلية

رغم التقدم المحرز في تعزيز حقوق الشعوب الأصلية ووسائل الإعلام الخاصة بها، هناك العديد من الأمثلة في العالم تؤكد أن وسائل الإعلام الجماهيرية لا زالت تمارس التمييز ضد الشعوب الأصلية.

وتقوم وسائل الإعلام المحلية بسد هذه الثغرة. بما أنها بُعثت من طرف الشعوب الأصلية ولصالحها، فهي تطالب بتحقيق الإدماج السياسي والشفافية والمساءلة، وتعزز التضامن الدولي، كما أنها تلقي نظرة نقدية على انتهاكات حقوق الإنسان.

واعترافا بأهمية الإذاعات المحلية الخاصة بالشعوب الأصلية، تدعم اليونسكو نحو ثلاثين مشروعاً متعلقا بإذاعات الشعوب الأصلية، وذلك منذ عام 2000 وبتمويل من برنامجها الدولي لتنمية الاتصال. وعلاوة على ذلك، تدعم المنظمة عددا من الإذاعات المحلية بمعدل 50 محطة كل عامين.

على سبيل المثال، يقوم مكتب اليونسكو في بنوم بنه (كمبوديا) منذ عام 2007 بتنظيم دورات تدريبية حول تنفيذ مشاريع متعلقة بوسائل الإعلام المحلية وتوفير برامج إذاعية باللغات الأصلية. كما منحت المنظمة تجهيزات إذاعية أساسية وقامت بتدريب منتجين شبان من المجتمعات الأصلية في مجال تصميم برامج إذاعية تُبَث يومياً لمدة ساعة بلغات كرونغ وتومبون وجراي وبراو. وعقب النجاح الذي أحرزه هذا المشروع، في مايو 2010، تبرع شريك آخر لصالح جماعات السكان الأصليين بأكثر من 100 جهاز استقبال إذاعي تشتغل بالبطاريات الشمسية، مما أتاح لنحو 400 أسرة الاستماع لبرامج الإذاعات المحلية والقنوات الوطنية دون الاضطرار إلى شراء بطاريات عادية.

المصدر: الشعوب الأصلية ومجتمع المعلومات، باريس، اليونسكو، 2016.

هند عمرو ابراهيم:
دفاعا عن حقوق شعب
مبورورو

أجرت الحوار دوميتيي رو

رغم الاعتراف بها على الصعيد العالمي، لا زالت الشعوب الأصلية في أفريقيا غير مُعترف بها في أوطانها، على غرار الفرقة الفولانية مبورورو التي لا تحظى بعد بكامل حقوقها، حسب هند عمرو ابراهيم، إحدى الناطقات الرسمية التشادية باسم الفرقة، ومنسقة جمعية النساء الفولانيات الأصليات بالتشاد.

ما هو وضع المبورورو في التشاد؟

بفضل إعلان الأمم المتحدة حول حقوق الشعوب الأصلية، نحظى باعتراف على الصعيد الإقليمي الذي يضمّ الدول الخمس حيث نحن مُوزّعون، وهي: الكاميرون، والنيجر، ونيجيريا، وجمهورية أفريقيا الوسطى، وتشاد. إلا أنه على الصعيد الوطني، لا توجد قوانين تحمي الشعوب الأصلية أو تعترف بها.

شارك الرئيس الحالي لدولة تشاد إدريس ديبي إتنو سنة 2014، بوصفه آنذاك رئيس المجموعة الاقتصادية لدول أفريقيا الوسطى، في المنتدى الثالث لشعوب أفريقيا الوسطى الذي انتظم في مدينة ايمبفوندو بجمهورية الكونغو. وخلال هذا الملتقى الدولي الذي تمحور حول المعارف والخبرات التقليدية والاقتصاد الأخضر، ألقى خطابا دافع فيه عن الشعوب الأصلية. ومثّل خطابه دعما سياسيا هاما ورسالة قوية لصالحنا. لكن الأمر توقف عند ذلك الحد: لم يتم نشر نص الخطاب ولم يترجم على أرض الواقع.

كيف تصفين ظروف عيش المبورورو؟

هي ظروف غير مقبولة. أقل ما يحق لأعضاء فرقتي هو الاعتراف لهم بصفتهم مواطنين ينتمون للبلاد. إلّا أن نصفهم، وخاصة منهم النساء والأطفال، لا يملكون حتى شهادة ميلاد. كيف لهم أن يُصبحوا أصحاب حقوق؟ بدون هذه الوثيقة الأساسيّة، لا يمكن الحصول لا على بطاقة تعريف ولا على جواز سفر، ولا يمكن مزاولة التعليم أو الانتفاع بالعناية الصحية. إذا قصد مريض المستشفى بدون شهادة ولادة، لن يأتي دوره إلّا بعد كل الآخرين، ويبقى عرضة لتلقي عناية غير مُلائمة له، بما أن الأطباء يجهلون سنه وحاجياته.

في الحقيقة، تُوجد الكثير من الوثائق والتعليمات، ولكن في الواقع، نحن متروكون لحالنا لِتسيير شؤوننا بأنفسنا دون أية مُساعدة. وحتى الماء الصالح للشراب ليس في متناولنا. المبورورو يشربون نفس الماء الذي تشربه الحيوانات، وهو ما يجعلهم عرضة للأمراض ويزيد في هشاشة أوضاعهم الصحيّة.

حدّثينا عن جمعية النساء الفولانيات الأصليات بالتشاد. ما هي مشاريعها منذ تأسيسها سنة 1999، وخاصة منذ أن حصلت على تأشيرتها القانونية سنة 2005؟

إن هدفنا الأساسي هو تحسين الأوضاع المعيشية لمجموعتنا، ويقوم عملنا على تحقيق برنامجين اثنين. يتمحور الأول حول حماية حقوق الإنسان وحقوق الشعوب الأصلية وتطويرها بالنظر إلى الإعلانات الوطنية والدولية الموجودة في هذا المجال. أما الثاني فيتعلق بحماية البيئة، كما نصّت على ذلك اتفاقيات ريو الثلاث المنبثقة عن ندوة الأمم المتحدة حول البيئة والتنمية (1992)، والمتعلقة بتغيّر المناخ والتنوّع البيولوجي والتصحّر.

من الناحية التطبيقية، نقوم بالتحسيس بالحقوق الاجتماعية الأساسية عبر دورات تكوينية حول الحصول على التعليم أو العناية الصحية.

كما نقوم بالتحسيس للّجوء إلى القضاء: بالنظر إلى ما تعاني منه التجمعات الأصلية من تهميش وتعنيف، فإن توعيتها بحقها في العدالة والإنصاف أمر أساسي.

أما بخصوص حماية المحيط وتنميته، فنقوم بتنظيم دورات تكوينية ونقاشات مع التجمّعات حول التأقلم مع تغير المناخ وحول أهميّة المعارف التقليدية في هذا المجال.

ما هي النتائج التي أحرزت عليها بفضل هذه الحملات التحسيسية؟

من نجاحاتنا، على سبيل المثال، أننا توصّلنا إلى بعث مراكز صحيّة تتلاءم مع التجمعات الرحّالة. لكننا نجحنا أيضا في إدماج النساء في النقاشات الجارية صلب تجمّعاتهن. لقد أصبح الرجال والنساء يجلسون جنبا إلى جنب للتباحث معا في مصيرهم.

وعلى الصعيد التشريعي، ساهمنا في إصلاح القانون المنظم لتربية الماشية الذي يعود إلى عام 1958 ولم يعد صالحا نظرا للنمو الديمغرافي وتغير المحيط منذ ذلك التاريخ. لسنا راضين تمام الرضا عن هذا الإصلاح، لكننا نعتبر أن ما أنجزناه يشكل نوعا من الانتصار بالنسبة لجمعيتنا.

وفي مجال التربية، لا بدّ أن نفهم أن التجمّعات الرحالة لا ترفض المدرسة، خلافا لما يظنّه البعض في كثير من الأحيان. إنما هي، بكل بساطة، تطالب بمدرسة تتلاءم في برامجها وفي توقيتها مع طريقة عيشها.

هروبا من العنف في بلدهم، لجأ سنة 2014 رعاة الغنم المنتمين لفرقة مبورورو أصيلي أفريقيا الوسطى إلى سوق الماشية في قرية غبيتي الحدودية (كاميرون)، وهي سوق تعودوا ارتيادها.

© UNHCR / Frederic Noy

الأطفال الرحّل في حاجة إلى تعلّم كيفية تسيير الموارد الطبيعية، مثل الماء، أو الصراعات بين التجمّعات، أكثر من معرفة تاريخ الحروب العالمية أو تاريخ فرنسا. كما أنهم يحتاجون إلى معلمين يتفهّمون ثقافتهم ويُحذقون لغتهم، لأن اللغة الأم أساسية في عملية التعلّم.

لما تم بعث إدارة مكلفة بتعليم الأطفال الرحل سنة 2012، رحبنا بهذا النبأ واعتبرناه مشجعا. لقد أخذت هذه الإدارة في عين الاعتبار احتياجات الفرق الرحالة ووضعت برامج نموذجية تتلاءم مع ظروف معيشة الأطفال. لكن فرقة المبورور لم تتمتع بعد بهذه الاجراءات.

ما رأيك في مشروع المحيط الحيوي وتراث بحيرة تشاد، الذي بعثته اليونسكو سنة 2018؟*

هذا المشروع واعد جدّا من حيث إصلاح النظام البيئي لبحيرة تشاد والحفاظ على مواردها وتوطيد العلاقات بين شعوب الدول المجاورة. ما يقلقني هو أن الوقت يمرّ في تحديد الأولويات، وفي خلق مناطق محميّة وفي إنشاء مشاريع رائدة... فتنفذ المدّة الزمنية المحدّدة للمشروع وتنفذ معها الميزانية المخصصة، دون التوصّل إلى نتائج ملموسة.

أعتقد أن هذا المشروع قادر على تحقيق تحوّل نوعي إذا تمكّن الخبراء الذين يحملونه من ربط علاقات مع السكان الأصليين تسودها الثقة المتبادلة. لقد عاش هؤلاء السكان في تلك الأماكن طيلة قرون. فهم ليسوا مجرّد عابرين، مثل بعض السياسيين. لذلك، لا بد من إنجاز المشروع في كل مراحله مع هذه الشعوب ومن أجلها، لغاية تحقيق أهدافه.

ولدت **هند عمرو ابراهيم** في تشاد سنة 1984. تجوب القمم الدولية لتحسيس القادة بحقوق الشعوب الأصلية وتغير المناخ. شاركت سنة 1999 في تأسيس جمعية النساء الفولانيات الأصليات بالتشاد، بهدف تحسين الظروف المعيشية لمجتمعها، المبورورو.

*يهدف مشروع المحيط الحيوي وتراث بحيرة تشاد الذي بعثته اليونسكو في فبراير 2018 إلى دعم قدرات الدول الخمس حيث يقطن المبورورو، للتمكّن من التصرف بشكل دائم في الموارد المائية، والبيولوجية والثقافية في حوض بحيرة تشاد، علما وأن هذا الحوض يوفر موارد العيش لنحو 40 مليون ساكن.

التكنولوجيات المتقدم

© SIKU

بقلم جويل هيث، بمساهمة لوكاسى أراغوتيناك

تعني كلمة «سيكو» في لغة إينوكتيتوت «جليد البحر». وقد تم اعتمادها لتسمية منصة إلكترونية أحدثت ثورة في الحصول على المعارف القديمة والبحوث الحديثة حول المجتمعات التي تعيش في منطقة القطب الشمالي في كندا. وانطلقت القصّة بشكل متواضع من التقاط بعض الصور لأسراب من بط العيدر وهي تكافح من أجل البقاء على قيد الحياة فوق الطوف الجليدي، وتطورت على مدى خمسة عشر عاما لتصبح مشروعا رائدا يجمع بين المعارف القديمة وأحدث التقنيات المعاصرة.

في ذلك اليوم من شتاء 2002، فاقت شدة البرد الدرجة المألوفة في منطقة كيكيكتالوك الواقعة في مقاطعة نونافوت (كندا). بالقرب من قرية سانيكيلواك، كان بعض الصيادين الإنويت يحملون رماحا ويتقدمون مسيرة فوق الجليد الرقيق الذي تشكل حديثًا، ليفتحوا الطريق، يتبعهم فريق من علماء الأحياء يسير بحذر شديد، مقتفيا خطاهم. وكان الضباب الجليدي المنبثق من المياه في بعض الأماكن يضفي على المشهد مزيدا من الغرابة.

وعلى حافة طوف جليدي يقع في الجانب الشرقي من جزر بلشر، حيث بدأت الثلوج تتصلب، كانت مجموعة من بط العيدر تتخبط بجهد جهيد حتى لا تتجمد المياه المتبقية. كان هذا الأمر حاسما بالنسبة لها: إن تجمدت المياه، لن تتمكن من الغوص لاقتناء الحيوانات البحرية مثل بلح البحر والقنافذ التي تمثل مورد قوتها الوحيد.

كانت حافة الجليد مغطاة بجثث البط الذي فاجأه التجمد. التفت المرشدون الإنويت الثلاثة ـ سيميوني كافيك، إيليا أوكوياتوك ولوكاسى إيباك ـ نحو علماء الأحياء المشاركين في الرحلة الاستكشافية قائلين: *«هذا ما أخبرناكم عنه. في أوائل التسعينات، لاحظ أحد شيوخنا أن عدد بط العيدر الذي مات على الجليد فاق عدد الحصى على الشاطئ»*. في ذلك الوقت، تولى الصيادون والشيوخ في قرية سانيكيلواك تنبيه السلطات الكندية، لكن هذه الظاهرة لم تحظ باهتمام المجتمع العلمي.

في رحلة عام 2002، قام أحد علماء الأحياء بتصميم كاميرا تعمل تحت الماء تسمح بتصوير بط العيدر عندما يغوص تحت الجليد. كنت آنذاك في طور إعداد رسالة دكتوراه، وقضيت الشتاءين التاليين على حافة جليد البحر، بقيادة كل من سيميوني وإيليا، لمراقبة وتصوير أساليب بط العيدر في البقاء على قيد الحياة.

وبعد سنوات طويلة من العمل الدؤوب مع جميع العائلات تقريبا في قرية سانيكيلواك، أفضى المشروع سنة 2011 إلى انتاج فيلم وثائقي بعنوان *«شعب وريش»* فاز بما لا يقل عن اثني عشرة جائزة. يسلط الفيلم الضوء على العلاقة الفريدة من نوعها التي تربط بين السكان وبط العيدر، والتحديات الناجمة عن التغيرات البيئية التي يواجهونها.

إن تعلق شعب الإنويت الذي يعيش على جزر بلشير ليس مجرد اهتمام بهذه الطيور، بل هو ناجم عن اعتماد حياتهم عليها. ذلك أن بط العيدر في خليج هدسون يقضي كامل فصل الشتاء في تلك الجزر، في حين أن معظم الطيور، بما في ذلك بط العيدر المتواجد في مناطق أخرى، تهاجر إلى الجنوب. مما يتيح للسكان المحليين، خلال فصل الشتاء، من استعمال جلود ذلك النوع من البط لصناعة السترات التقليدية وتلبية احتياجاتهم الغذائية، باعتبار أن الجزر خالية من الوعول.

ـة على طريقة سيكو

يتحسس صياد بط العيدر حالة الجليد.

تجميع أجزاء اللوحة

في سياق إنتاج الفيلم سنة 2011، تم تأسيس جمعية بط العيدر في القطب الشمالي. ويجدر التذكير بأن الطريق كانت معبدة أمام الجمعية بفضل برامج البحوث التي أنجزتها المجموعات المحلية بدعم من السنة القطبية الدولية (2007 – 2008) وبفضل تجند السكان لهذه القضية منذ أوائل التسعينات حيث أطلقت مجموعة سانيكيلواك برنامجاً شاركت فيه 28 مجموعة من الإنويت والكريس في خليجي هدسون وجيمس، يهدف إلى تجميع معارفهم حول التغيرات البيئية. وقد نتج عن هذا المشروع إصدار كتاب سنة 1997 تحت عنوان *«أصوات من الخليج»* لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا مصدرا ثمينا للمعلومات حول المنطقة.

تهدف جمعية بط العيدر في القطب الشمالي، وهي جمعية خيرية لِشعب الإنويت، إلى تمكين السكان المحليين من تولي مسؤولية البحث والتعليم والتصرف في بيئتهم المحلية. وقد ركزت في برامجها الأولى على تقييم تغيّر المحيطات والجليد البحري، وتدريب الصيادين والشباب على استخدام بيانات قياس نسبة المُلوحة ودرجات الحرارة، وإنشاء محطات لمراقبة السطح الجليدي وتحليل عينات من الجليد والماء.ثم تأسست شبكة المجتمعات المحلية للبحث العلمي التابعة لجمعية بط العيدر في القطب الشمالي.

وتشمل الشبكة تجمعات سانيكيلواك (نونافوت)، وإينوجواك، وأوميوجاك، وكوجواراابيك (منطقة نونافيك في إقليم كيبيك) وشيساسيبي (مجتمع كري في المنطقة البحرية أيو من إقليم كيبيك). وكلها مجموعات متجاورة احتفظت كل واحدة منها بإحدى مكونات لغز *«اللوحة»* البيئية. ولما تضافرت جهودها، تمكنت في النهاية من تركيب جزئيات اللوحة وتقديم صورة شاملة لتطور المنطقة.

وتمكنت الشبكة من ربط علاقات شراكة مع عدة أطراف، من بينها برنامج مكافحة الملوثات في الشمال، وذلك بفضل الاستفادة من الخبرة الأكاديمية لجامعة مانيتوبا وجامعة كارلتون وشبكة القطب الشمالي الإلكترونية التابعة لجامعة لافال، والتمويلات التي وفرها المخطط العام لمراقبة نونافوت ومجلس التصرف في الموارد الحيوانية للمنطقة البحرية لنونافيك، وأمة الكري في شيساسيبي. كما وسعت الشبكة برامجها لصالح مناطق جديدة بتمويل من مؤسسة بولار نولدج كندا (المعارف القطبية كندا).

أولويات جديدة

واستفادت المجموعات المحلية من الدورات التدريبية لبلورة ثلاث أولويات جديدة: الزيادة في تحفيز الشباب، ومعالجة التحديات التشريعية المحلية، وتقاسم النتائج بالتنسيق في ما بينها بصفة آنية.

وحتى تحث الشباب على المشاركة، أنتجت الشبكة بالتعاون مع اللجنة المدرسية لنونافيك (كاتيفيك اليسارنيايرنك) منهجا تربويا شاملا مركزا على مجتمع الإنويت، يتمثل في حقيبة تعليمية حول جليد البحر في القطب الشمالي، تحتوي على أدوات تفاعلية متعددة الوسائط، تسمح للتلاميذ بالإطلاع على نتائج مشاريع الشبكة، والاشتراك في نشاط الصيادين والمشاركة بشكل مباشر في البحوث العلمية المحلية.

وفي ما يتعلق بالأولوية الثانية، جمعت قمة خليج هدسون الأولى المنعقدة سنة 2018 نحو 27 جماعة من الإنويت والكري من سكان خليج جيمس وخليج هدسون، وممثلي 97 منظمة، لتشكيل اتحاد خليج هدسون، وهو منتدى للتعاون والتصرف المنسق لمنطقة معقدة على المستوى التشريعي.

© Qavavau Manumie / Reproduit avec l'aimable autorisation de Dorset Fine Arts

«تحوّلات» للفنان الإنويت كافافو مانومي، كايب دورسات، 2011.

وأخيرا، بالنسبة للأولوية الثالثة المتمثلة في تقاسم المعطيات بصفة آنية، قررت المجتمعات الخمس المعنية إنجاز منصّة على الإنترنت، تتكون من خريطة بسيطة للمنطقة مصحوبة بالتسلسل الزمني مع مدخل فردي لكل باحث، حتى يقوم كل منهم من تسجيل معطياته الناتجة عن قياس درجة الملوحة، وتحليل عينات الجليد ورصد الملوثات.

ولا تنحصر فائدة هذه المنصة النموذجية في تحسين معالجة المعطيات المشتركة بين عدد كبير من المتعاونين، بل تتمثل كذلك في تمكين كل مجموعة من الاطلاع على معطياتها ومقارنتها بمعطيات المجموعات الأخرى، بواسطة جدول شامل. في الماضي، كانت نتائج البحوث، في أغلب الأحيان، تحبس في ملفات إحدى جامعات المناطق الجنوبية، وتترك على رفوف الخزائن للأبد.

أما اليوم، فقد أصبحت المعلومات متاحة للجميع، بما فيهم شباب الإنويت المولع بالإعلامية. وقد تم إدراج وظائف جديدة مثل توصيف الرسائل والصور المنشورة مع تحديد موقعها الجغرافي، مما يسمح بمعرفة هوية ناشرها، ونشر معلومات حول أنواع الحيوانات، وكذلك بسط نتائج قياسات وتعليقات وملاحظات متنوعة.

معابر جليد القطب الشمالي في موقع غوغل

في عام 2015، تعاونت جمعية بط العيدر في القطب الشمالي مع شبكة غوغل آرث للتواصل لتصميم أول خريطة للجليد البحري بواسطة برمجية *«غوغل ستريت فيو»*، تشمل مواقع مجموعة سانيكيلواك بالإضافة إلى بولينيز وحدود الطوف الجليدي في فصل الشتاء. وبذلك، فتحت أمام مستخدمي الإنترنت في الشمال كما في الجنوب إمكانية استكشاف جليد البحر القطبي الشمالي، بواسطة وسائل تكنولوجية جديدة.

وفي المرحلة الموالية، تم إنشاء شبكة للوسائط الاجتماعية ومنصة للخرائط الجغرافية، بمشاركة السكان الإنويت ولِصالحهم. وحال ظهوره، نال الموقع الذي يحمل عنوان «سيكو: ويكي معارف السكان الأصليين» ومنصة الخرائط الاجتماعية جائزة *«غوغل إمباكت شالنج 2017»* في كندا، وفتحت أمامه آفاقا للتطور. وترمز كلمة *«سيكو»* التي تعني في لغة إينوكتيتوت *«البحر الجليدي»*، في نفس الوقت إلى فضاء التواصل والتغيرات التي حصلت في المنطقة الشمالية.

تجمع هذه المنصة الالكترونية التي لا زالت في مرحلة تجريبية، مجموعة واسعة من الأدوات والخدمات الأساسية لمجتمع الإنويت، تتعلق بالتكهنات الجوية المحلية، والمد والجزر البحري، وصور للجليد البحري ملتقطة عن طريق الأقمار الصناعية، تكاد تكون آنية. ومن المقرر إطلاق الموقع رسميا في أواخر عام 2019. كما تم تطوير تطبيق محمول لتوسيع نطاق الموقع.

عهد جديد

بطبيعة الحال، لن يمثل التطبيق المحمول بديلا لاستخدام الرماح لفحص الجليد أو لنقل تجارب الأسلاف. ولكن الجمع بين أفضل المقاربات العلمية الحديثة ومعارف الأسلاف المتراكمة على مدى عدة قرون، أصبح يمكن الآن مراقبة حالة الجليد البحري وقياس مدى خطورتها، باستخدام مصطلحات لغة إينوكتيتوت. ونأمل أن يتم في يوم ما إدماج هذه المصطلحات في مناهج تعلّم الآلة (الذكاء الاصطناعي)، حتى تتمكن مجتمعات السكان الأصليين من الحصول عن بعد على المعلومات المفيدة دون تأخير وباللغة التي يتحدثون بها.

يمكن الآن للجمعيات والمجموعات الأصلية تقاسم الأخبار والتقارير والمدونات. ويمكن للشباب استيعاب الثقافة المحلية من خلال تبادل قصص الصيد والأسماء التقليدية للأماكن. كما أن الملاحظات التي كانت تُعتبر سابقا هامشية ولا تحظى باهتمام العلماء، أصبحت الآن جديرة بالتوثيق والتحديد الكمي. لقد وفرت سياسة التصرف والصيانة المتبعة إمكانية تحكم السكان المحليين في مُعطياتهم، وممتلكاتهم الفكرية وكيفية تقاسم المعلومات.

انطلق هذا المشروع منذ نحو خمسة عشر عامًا من بعض الصور لأسراب بط العيدر فوق سطح الجليد القطبي. وها أنه أصبح الآن يحلق من تلقاء نفسه، إلى ما أبعد من المحيط البيئي الشتوي لِبط العيدر في خليج هدسون.

جويل هيث (كندا) عالم ومنتج أفلام. قضى عشرين عاما في القطب الشمالي صحبة مجموعات الإنويت، وجمع بين خبرته في علم البيئة وديناميكية الجليد البحري والبيولوجيا الحسابية وبين معارف مجتمع الإنويت. وهو المدير التنفيذي ومؤسس مشارك لجمعية بط العيدر في القطب الشمالي، وهي مؤسسة خيرية لمجتمع الإنويت يقع مقرها بسانيكيلواك في نونافوت.

لوكاسي أراغوتيناك (كندا) مؤسس مشارك وعضو مجلس إدارة جمعية بط العيدر في القطب الشمالي، ومدير جمعية صيادي سانيكيلواك. شارك في تأليف كتاب «أصوات من الخليج» (1997) وبعث مبادرات عديدة لتعبئة معارف الشعوب الأصلية.

الحبل السرّي

تواوهينوا من نيوزيلندا يشرحون ارتباطهم بالأرض

جذع شجرة غابية منحوت من طرف الماوري.

© Matias Dandrea / Shutterstock.com

يحتل مفهوم *«تاتاي وهاكابابا»* مكانة أساسية في نظرة مجموعة تواوهينوا للعالم، وهو مفهوم يدل على الترابط بين سلالات كل الأشياء الموجودة. بالنسبة لهذه المجموعة التي تنتمي لشعب الماوري في نيوزيلاندا، كل الأشياء متصلة بعضها ببعض: الخفافيش، والسحالي، والطيور، والحشرات، والأشجار، والنباتات، والجبال، والأنهار والبحيرات... وهذا التواصل هو مصدر قوّة النظام البيئي. وإذا ما تدهورت هذه العناصر، فسوف تتدهور معها سلامة البيئة والسكان.

تعني كلمة *«وهينوا»* الأرض، وتُحدّد من أنت والمكان الذي أتيت منه. وتعني أيضًا المَشيمة. وفي كلتا الحالتين، تدل الكلمة على بداية الإنسان وعلاقته بأمّه – ذلك الشخص الذي منحه الحياة.

حين تضع نساء التواوهينوا مولودا خارج أرضها الأصلية، يستوجب نقل المشيمة إلى الوطن ودفنها في أراضي القبيلة. وينطبق التقليد نفسه على *«البيتو»*، أي الحبل السرّي.

وتدل هذه الطقوس على الارتباط الدائم بـ*«باباترانوكو»* أي الأرض الأم... بعبارة أخرى، هي تعني ارتباط الفرد بمكانه في العالم.

إنّ الحفاظ على الروابط مع الأرض ومواردها أمر حاسم بالنسبة للتواوهينوا، حيث أنّهم يعتبرونه تجسيدا لـ*«مانا»*، أي نفوذهم وسُلطتهم. وكان الأسلاف يعتقدون أن من واجب الفرد، والفرقة (هابر) والقبيلة (إيوي) احترام *«مانا»* باستمرار، مهما كانت مصاعب الحياة وتقلبات الزمن، ومهما كانت الأحداث التي تجد في العالم.

كان الأسلاف يعلمون علم اليقين أنه سوف يعسر على البعض الحفاظ على العلاقة التي تربطهم بالأرض والأنهار، والحيوانات والطيور ولكنهم كانوا يعتبرون أن في الحفاظ عليها يكمن معنى الانتماء إلى شعب تواوهينوا.

كما كان الأسلاف يعتبرون *«مانا»* من بين أهم المبادئ لشعب تواوهينوا. وهو مبدأ لا يمكن فصله عن *«ماوري»* أي القوّة الحيوية أو جوهر الحياة. ولما يتحدث شعب تواوهينوا عن طهارة ثقافتهم، يستعملون أيضا عبارة «ماوري البيئة». بالنسبة لهم، لا يمكن أبداً اقتلاع *«ماوري»* الغابة. كل عنصر من العناصر المكونة لهذا العالم يمتلك قسطا من «ماوري»، وطالما تتدفق الأنهار وتبقى ولو شجرة واحدة واقفة، لن تنطفئ القوة الحيوية.

كيريتويا توماراً – تيكا و جيمس (تاهاي) دوهرتي (أصيلي شعب تواوهينوا في نيوزيلندا) بالاشتراك مع فيل ليفر (باحث نيوزيلندي).

المصدر: «معارف الشعوب الأصلية المتصلة بالتلقيح والملقحات في مجال الإنتاج الغذائي»، اليونسكو، 2015 (باللغة الانجليزية).

أرزّ وسمك وبطّ في تناسق

مع البشر

بقلم داي رونغ وكسيو دايوان

ابتكرت فرقة دونغ، وهي أقلية عرقية صينية مقيمة منذ القِدم في مقاطعة كونغجيانغ وسط إقليم غويزهو، نظاماً لإنتاج الموارد الغذائية يراعي في نفس الوقت ضمان صحة السكان والمحافظة على استقرار النظم البيئية المحلية وتنوعها. كانت فرقة دونغ سباقة في المحافظة على محيطها، وقد مارست طريقة زراعية يمكن أن نصفها اليوم بأنها خضراء، ولّدتها حكمة الأسلاف.

© Kuang Humin

تعاني مقاطعة كونغجيانغ، التي ينتمي معظم قاطنيها إلى فرق مياو ودونغ وثلاث عشرة أقلية عرقية أخرى، من ندرة الأراضي القابلة للزراعة. وفي مثل هذا المحيط المعادي، أبرزت فرقة دونغ قدرتها الخلاقة من خلال ابتكار نظام للإنتاج الزراعي يحقق في نفس الوقت فوائد اقتصادية وبيئية واجتماعية وثقافية.

ولا تزال هذه الممارسات القديمة سارية المفعول إلى اليوم، مما يتيح للنظام البيئي إعادة تدوير تدفقات الطاقة والمواد. وقد احتفظت فرقة دونغ بالمشاتل القديمة للأرز اللزج ولا زالت تزرعها في المنحدرات المدرجة، وتستغل حقول الأرز لتربية السمك. ولما يبلغ طول الأسماك 10 سنتيمتر، تضاف فروخ البطّ إلى أحواض التربية.

يعتمد هذا النظام التآزري *«أرز ـ سمك ـ بطّ»*، الذي يعود لعهد سلالة هان الشرقية (من 25 إلى 220 بعد المسيح) على الخصائص البيولوجية والبيئية لمختلف الكيانات، ويراعي احتياجات كل منها من حيث المكان والزمان والمادة والطاقة. كل نوع منها، حيث يتواجد، يفي باحتياجاته الخاصة، ويستغل الطاقة الشمسية والمياه والعناصر المعدنية المتاحة على النحو الكامل، وينجز مع غيره من الكيانات هيكلا إنتاجيا يستفيد منه الجميع.

على مساحة تبلغ نحو 12.600 هكتارا، توفر براعم الأرز اللزج الظل والغذاء البيولوجي للأسماك والبط التي تقوم بدورها بإبعاد الآفات وتوفير أسمدة طبيعية ممتازة، فضلاً عن قيامها بدور هام في إبادة الأعشاب الضارة وتخصيب وتوفير الأكسيجين لحقول الأرز.

كل أنواع الأرز والبط والأسماك محلية ولا تتطلب أية إضافة لمبيدات الآفات، نظرا لأن النظام المذكور يوفر لها حماية ممتازة ضد الأمراض. كما أن هذا النظام يضمن الحفاظ على تنوع الكيانات والنظم البيئية الزراعية المحلية بصفة ناجعة، بل ويُخفّض بنسبة كبيرة تكاليف تغذية الحيوانات واليد العاملة.

وبالنسبة لسكان القرى المعزولة الواقعة في جبال مقاطعة كونغجيانغ، تمثل حقول الأرز المصدر الرئيسي للتغذية نظرا لتواجد ما لا يقل عن مائة نوع من النباتات البرية القابلة للاستهلاك، منها السرخس والخيزران والفطريات وكذلك القلقاس واللوتس والكرفس المائي وموز الجنة. أما الحيوانات المائية مثل الحلزون والإنقليس، فهي توفر للسكان بروتينات ذات قيمة غذائية عالية. وعلاوة على ذلك، بفضل الطابع البيولوجي لهذا النموذج الزراعي، ترتفع القيمة الشرائية للأسماك والبط التي يبلغ سعرها ضعف سعر المنتجات العادية.

أصبح النظام الزراعي التقليدي مهددا جراء عولمة الاقتصاد وسرعة التطور التكنولوجي

في مقاطعة كونغجيانغ (الصين)، كل السواعد مُجنّدة لحصاد الأرز في فصل الخريف.

في عام 2011، اختارت منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة هذا النظام كموقع رائد لحماية نظم التراث الزراعي ذات الأهمية العالمية. وفي عام 2013، أدرجت الحكومة الصينية هذا النظام في المجموعة الأولى للنظم الزراعية التراثية ذات الأهمية في الصين.

ملامح حياة جديدة

إلا أن هذا النظام الزراعي التقليدي أصبح مهددا جراء عولمة الاقتصاد وسرعة التطور التكنولوجي. لقد بلغت الزراعة الحديثة مستوى من الإنتاجية والنجاعة جعلها تؤثر إلى حد كبير في الزراعة التقليدية. كما أن الإدخال المكثف لأنواع غريبة عالية المردود خفّض، بصفة متواصلة من سنة إلى أخرى، من المجال المخصص للزراعة التقليدية. وفي هذا السياق العام لتطور الزراعة، أدى الاستخدام المكثف للمبيدات والأسمدة طوال عدة عقود في المنطقة، إلى تلوث الأراضي الزراعية والمياه لدرجة أنه أصبح يهدد الأمن الغذائي.

إن عدد مواطني الصين الذين أصبحوا على وعي بعيوب الإنتاج الزراعي الحديث والذين يؤيدون أخْذ الممارسات التقليدية بعين الاعتبار في تطوير الزراعة في المستقبل، في تزايد مستمر. ذلك أن النظام المنشود لتطوير الزراعة يستلزم حماية الزراعة التقليدية والحرص على زيادة مداخيل المزارعين، مع مراعاة البيئة، وتشجيع السياحة وصون التراث الثقافي للبلاد.

هذا الوعي من شأنه أن يتيح فرصة جديدة لتطوير نظام «*أرز ـ سمك ـ بطّ*» الذي قد يصبح مصدر إلهام للزراعة الحديثة في الصين وفي أيّ مكان آخر في العالم حيث تتوفر ظروف طبيعية مماثلة. كما أنه يكتسي أهمية كبرى في البحث عن حلول للمشاكل المتأتية من تدهور الأوضاع الزراعية والبيئية على الصعيد العالمي.

داي رونغ وكسيو دايوان (الصين)
أخصائيان في مجال المعارف التقليدية للأقليات العرقية، يساهمان بصفة هامة في أعمال المنتدى الحكومي الدولي للعلوم والسياسات المعني بالتنوع البيولوجي وخدمات النظم البيئية. داي دونغ التي تنتمي إلى الأقلية توجيا، مختصة في علم الإثنولوجيا البيئية وتعمل في معهد علوم البيئة في نانجينغ. أما كسيو دايوان فهو أستاذ في كلية علوم الأحياء والبيئة بالجامعة المركزية للأقليات في الصين.

إعادة الإعتبار لمعارف السكان الأصليين

تشمل المعارف التقليدية المفاهيم، والمهارات والفلسفات المتعلقة بالنظم البيئية والثقافية والاجتماعية التي تطورت عبر العالم على مدى آلاف السنين. غير أن هذه المعارف غالباً ما تغيب عن النقاشات العلمية، شأنها في ذلك شأن من يمتلكها، فهم يُستبعدون في كثير من الأحيان من دوائر اتخاذ القرارات السياسية الخاصة بالانتفاع بالأراضي والموارد واستخدامها وإدارتها، رغم أن هذه القرارات ذات أهمية حاسمة في ما يتعلق بتحقيق الرفاه الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للشعوب الأصلية.

ومنذ خمسينات القرن الماضي، بدأ الاعتراف بالمعارف الأصلية، التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من التراث الثقافي غير المادي للإنسانية، باعتبارها نُظماً فكرية، ويعود ذلك بصفة خاصة إلى أعمال هارولد كونكلين حول الخصائص الإثنو-إيكولوجية لشعوب هانونو في الفيلبين. لكن الاعتراف بهذه المعارف على الصعيد العالمي لم يأت إلا اعتبارا من عام 1992، خلال قمة الأرض في ريو دي جانيرو بالبرازيل، أي بعد فترة وجيزة من صدور توصية اليونسكو عام 1989 بشأن المحافظة على الثقافة التقليدية والشعبية.

تدافع اليونسكو عن حق السكان المحليين والأصليين في المشاركة في عمليات الحوكمة، داعيةً إلى الاعتراف الكامل بمعارف هذه الجماعات وخبراتها وممارساتها التي أثبتت فعاليتها في ما يتعلق بإدارة التنوع البيولوجي. وهو أحد الأهداف التي يرمي إليها برنامج اليونسكو الخاص بنظم المعارف المحلية ومعارف السكان الأصليين (لينكس). كما يهدف هذا البرنامج الذي انطلق في عام 2002، إلى ضمان مكانة متكافئة لمعارف السكان الأصليين صلب التعليم النظامي وغير النظامي، فضلاً عن تعزيز تناقلها.

شعب سامي جوكموك

يتحدّى الحداثة

بقلم ماري رواي

في منطقة لابلاند السويدية، يربي شعب السامي غزال الرنّة. لكن المنطقة أصبحت مُهدّدة بسبب استغلال الغابات، والخطوط الحديدية، والسدود والنمو الحضري. وكوسيلة للصمود أمام هذا التهديد، يضع السامي استراتيجيات مُتنوعة، منها التأقلم الجزئي مع نمط الحياة الحضرية واستعمال مهاراتهم التقليدية للتعرف بدقّة على أوضاع المراعي.

يحتل شعب السامي، أو اللابيون كما كانوا يُسمّون سابقا، المناطق الواقعة في الدائرة القطبية الشمالية في أوروبا منذ آلاف السنين. ويُقدّر عددهم اليوم بحوالي 80.000 نسمة، ويقطن أغلبهم بأقصى الشمال، في منطقة سابمي (لابلاند) التي تتوزع على أربع دول – فنلندا، والنرويج، وروسيا والسويد – في حين استقر جزء منهم في الناحية الجنوبية، لا سيما في –أوسلو وستوكهولم.

وقد أنشأ السامي مجلسا خاصا بهم يسمح لهم بالتفكير المشترك في مستقبل بلدهم، دون اعتبار للحدود الوطنية، علما وأنه في واقع الأمر، لم تمنعهم تلك الحدود أبدا من الشعور بالإنتماء لشعب واحد. وكانت لهم دائما تلك القدرة الفائقة على التأقلم مع الحداثة، مع الإحتفاظ بتجذّرهم في تقاليدهم. حتى أن أول رئيس لهيئة الأمم المتحدة الدائمة المعنية بالشعوب الأصلية كان منهم، كما أنهم يتعاونون بشكل حثيث مع مجلس القطب الشمالي.

وعلى مستوى التمثيل السياسي، تأسس البرلمان السامي بفنلندا منذ 1973، تلاه آخر بالنرويج سنة 1989، وثالث بالسويد في 1993.

يُمارس السامي عدّة مهن. بعضهم فنانون أو مُثقّفون مشهورون، رسامون، ونحاتون، وصحافيون، وكُتّاب، وسينمائيون، ومُطربون، أمثال نيلس-أسلاك فالكيبا أو ماري بوان. لكن المهنة التقليدية لشعب السامي تبقى بامتياز تربية الرنّة.

قدرة فائقة على التأقلم

لنأخذ مثال منطقة جوكموك الواقعة في السويد بجهة نوربوتن (التي تمسح 100.000 كلم^2 ، أي حوالي ربع البلاد). تمتاز تلك المنطقة بتربية الرنّة و تعد ما لا يقلّ عن 4000 مُربّ للرنّات ينتمون لشعب السامي. رغم المخاطرالعديدة التي تهدد أرضهم، فإنهم يحتفظون بقدرة فائقة على الصمود. ولا غرابة في ذلك! لقد برهنوا في الماضي على قدرتهم على التأقلم. فبعد أن كانوا يتعاطون الصيد البحري والأشغال الغابية وصيد الرنّات الوحشية، ابتدعوا تربية الرنّة عند قدوم المُعمّرين الإسكندينافيين الأوائل، منذ أربعة أو خمسة قرون خلت، والذي تسبّب في التضاؤل الفادح في عدد الحيوانات الوحشية.

في بداية القرن العشرين، عندما أراد الإنجليز والإسكندينافيون استغلال أنهارهم، بإنشاء سدود لتوليد الكهرباء، وعندما قاموا بحفر جبالهم لاستخراج معدن الحديد لصنع الفولاذ، تمكن السامي من تجاوز تلك الاضطرابات.

في الستينات، لما أصبح استغلال الغابات في السويد وفي فنلندا نشاطا صناعيّا، على حساب التنوع البيولوجي، بقي مُربّو الرنّات على صمودهم المعتاد. بعد ذلك، في السبعينات، أنشأ السامي في ألتا، بالنرويج، واحدا من أول التحالفات البيئية، يضمّ مُدافعين عن حقوق الإنسان وعن السكان الأصليين، للتصدّي لمشروع بناء سد كان يهدد بالقضاء على قرية شتويّة هامّة.

وما انفكّ التوسع الاستعماري يُهدّد بشكل مُتزايد حقوقهم في الصيد البحري والبرّي وحقوقهم على أراضيهم. ومع ذلك فإن مُربي الرنات ما زالوا قائمي الذات.

تهديدات شديدة الخطر

يأخذ سامي جوكموك رنّاتهم إلى الجبال طيلة فصل الصيف، وينزلون بها في الخريف إلى الغابات في السهول. واليوم، أصبحت هذه الغابات تُستغل صناعيا، ويتقاسم المُربّون حقوق الانتفاع مع مالكي الغابات. ويُمثّل هذا التعايش تحدّيا هامّا، ذلك أن مُستغلّي الغابات يقومون بقطع الأشجار بكاملها ثم يزرعون غيرها، بالإضافة لما تتسبب فيه الآلات الضخمة المستعملة من تدهور للأراضي وإتلاف لنبتة الحزاز التي تحصل عليها الرنّات عند حفر الثلج، لِتتغذى منها. علما وأن الحزاز يتطلب فترة تتراوح بين ثلاثين وخمسين سنة حتى ينبت من جديد!

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد. فالأراضي المخصصة لتربية الرنات أضحت اليوم مُجزّأة، تعبرها سكة حديدية لنقل معدن الحديد والمسافرين. كما أن السدود والبحيرات الاصطناعية التي شيدت أصبحت تُعرقل الطرقات التي يستعملها المربون الرحّل، في حين تقلّصت مساحات المراعي جراء اتساع المدن وحفر المناجم.

وها أن شعب السامي يُواجه اليوم صعوبة جديدة، تتمثل في التغيّر المناخي. في الشمال، المشكلة لا تكمن في ارتفاع درجة الحرارة، بل في تداعياتها على عدم استقرار الحرارة في الشتاء. فعندما تتعاقب التقلبات بين الحرارة والبرد باستمرار، تتكون طبقة من الجليد فوق سطح الثلج، مما يجعل الرنّات غير قادرة على الحفر كي تتغذّى.

استراتيجيات تؤلف بين الحداثة والعراقة

لما تُصبح الرنّات غير قادرة على الحصول على غذائها لحالها، يضطر المُربّون لشراء التبن أو مواد غذائية جاهزة (وهي باهظة الثمن وقد لا تتحمّلها الحيوانات)، أو أكياس من الحزاز، وذلك هو الأفضل. ويقوم المربون أحيانا بجمع الحزاز بأنفسهم من الأماكن التي لا تقدر الرنّات على الوصول إليها، كتلك المحاذية للمطار مثلا. هذا جزء من الاستراتيجيات الجديدة التي تبنّاها السامي لضمان بقائهم.

من جهة أخرى، لتحسين مداخيلهم، يُحاولون بيع لحم الرنّات مباشرة من المربي إلى المستهلك، أو اللجوء إلى العمل الموسمي في مجال السياحة. وكثيرا ما تتّجه النساء إلى الشغل القار في مجال التعليم، أو الطب، أو الصحافة، أو الخياطة أو التجارة لضمان اتزان الدخل العائلي الذي أصبح هشّا جرّاء انخفاض عائدات تربية الرنّات.

لكن سلاح السامي الأفضل يكمن في معارفهم التقليدية. ذلك أن معرفتهم بالثلج وتغيّر حالته حسب درجة الحرارة، وما تحتوي عليه لغتهم من مفردات دقيقة ومفصلة لوصف حالاته على تنوعها، كل ذلك يسمح لهم بالمراقبة الدائمة لأوضاع المراعي.

وخلافا للعلوم الغربية التي تحدد، حسب منهجية ثابتة، قدرة الحمولة (أي عدد الحيوانات التي يمكن لقطعة أرض معينة استيعابها) بالإستناد إلى تحليل كمي للنبات، فإن علم شعب السامي يعتمد على ما تكنه الطبيعة.

وبالفعل، حتى يقيّموا وضع المرعى، يقومون بحفر طبقات الثلج وتحليل ما تحتويه من بلّوريات لتقدير آثار الأحداث التي تتالت أثناء الفصل: تطوّر الرياح ودرجات الحرارة، والغابة، والنباتات، وعلاقتها المتبادلة مع الرنّات. ومن ثمّ، يتسنى لهم معرفة وضع المرعى بكل دقة في زمن ومكان محددين، وليس معرفة مدى ثراء المرعى بصفة مطلقة، وهو ما يُمكّنهم من التصرّف بالطريقة الملائمة.

وبوصفهم مُختصين في التغيّرات المناخيّة، يستند السامي على معارفهم وتجاربهم، حتى يتمكنوا من الصمود، بالرغم من أن قدرتهم على التحرك محدودة بسبب ما يتّسم به التغيّر الشامل من عنف.

> *يقوم السامي بتحليل الثلج لتقدير تطوّر الرياح ودرجات الحرارة، وأحوال الغابة والنباتات والتربة*

ماري رواي (فرنسا – كندا) باحثة في مجالي الأنثروبولوجيا البيئية والبيولوجيا العرقية في المتحف الوطني لتاريخ الطبيعة بباريس، وهي مديرة البحوث في المركز الوطني للبحث العلمي في فرنسا.

مُربّي الرنات من شعب سامي في كوتوكاينو (النرويج) يمد شريطا طويلا من نسيج الجوتة لتجميع القطيع.

© Bryan & Cherry Alexander / Cosmos

عودة إلى جزر لاو،
وكل الأشرعة مفتوحة

بقلم فولونا تيكواديليماكوتو تويموس

«علّمنا آباؤنا، طيلة آلاف السنين، احترام المحيط والاعتناء به. لكن القوى التي تُهاجمه وتُدمّره اليوم خارجة عن نطاق قدراتنا، وليس بإمكاننا مراقبتها ولا التصرف فيها». **هذا ما صرّح به فولونا تيكواديليماكوتو تويموس، ملّاح شاب من جزر فيجي.**

أُدعى فولونا تيكواديليماكوتو تويموس. يدل إسمي على هويتي وعلى أصلي. أنتمي إلى دولة صغيرة، جزر فيجي، الواقعة وسط أكبر محيط في العالم، المحيط الهادئ. أعيش في كوروفا، وهي قرية صغيرة مُحاذية للعاصمة سوفا. لكنني أصيل جزيرة أصغر، وهي جزيرة موس («مو-ذاي»)، التابعة لفرقة لاو.

نحن شعب ينتمي للبحر. طوال آلاف السنين، مثّلت اليابسة بالنسبة لنا ملاذا للراحة، والمحيط الهادئ المكان الذي نعيش فيه.

لقد زوّدنا البحر دوما بالمواد التي نحتاجها لنتغذى ونحمي أنفسنا. كان مسلكنا اليوميّ، والمكان الذي نتسوّق منه. أما اليوم، فقد أصبح ظلا لما كان عليه في الماضي: يزداد يوما بعد يوم، تلوّثا وحموضة وحرارة واستغلالا إلى درجة لم تعد تحتمل. كما أن مستوى سطح مياهه في ارتفاع مستمر.

علّمنا آباؤنا، طيلة آلاف السنين، احترام المحيط والاعتناء به. لكن القوى التي تُهاجمه وتُدمّره اليوم خارجة عن نطاق قدراتنا، ولم يعد بإمكاننا مراقبتها ولا التصرف فيها.

نحن شعب مكون من الملاحين. عند حلول الأوروبيين لأول مرّة في محيطنا، كانت مراكبنا الشراعية أكبر المراكب وأسرعها في العالم.

وفي القرن الثامن عشر، دوّن الربّان كوك ما يلي: *«كان توي تونغا يحوم حول مركبنا كما لو كان مركبنا راسيا»*. توي تونغا سفينة من نوع دروا صُنعت في بلادي، في جزر لو.

وكانت أكبر من مركب كوك وتبلغ سرعتها ثلاثة أضعاف سرعته، وطاقمها يفوق طاقمه عددا. كانت السفينة قادرة على الإبحار في التصاق بالرياح تماما مثل السفن العصرية.

مفخرة تكنولوجية

كانت سفن دروا في قمة النجاح التكنولوجي. يتم بناؤها دون استعمال المعادن، بالاقتصار على الخشب، والعشب، والجوز، والحجارة، وعظام القرش وجلدته. وقد سمحت الخبرة التي اكتسبها أجدادنا على مدى آلاف السنين ببناء الآلاف من هذه السفن التقليدية، في جزرنا الصغيرة، و بيعها في كل أرجاء المحيط الهادئ الأوسط. كانت آنذاك كل جزيرة تملك وسيلة نقل خاصة بها، مزوّدة بالطاقة المُتجددة المجانية والمُتوفّرة باستمرار.

وقد وصف كل *«الروّاد»* الأوروبيين المحيط الهادئ بكونه مُرصّع بالمراكب الشراعية. كنّا شعبا جوالا.

ورغم الأعاصير، والتسونامي وغيرها من الكوارث الطبيعية المُتواترة في المحيط الهادئ، لم يمثل المحيط أبدا عقبة بالنسبة لأسلافنا. لم يشتكوا من هشاشة وضعهم أو من عزلتهم أو من تردّي ظروفهم: بفضل سفينة دروا وقدرتنا على الإبحار مهما كانت الظروف، كنا شعبا دائم التواصل. لم نكن ما نسمّى به اليوم دولا «صغيرة»، أو «جزرية» أو «في طور النموّ». كنّا، ولا زلنا، تجمّعات كبرى تنتمي للمحيط.

كثيرا ما تُوصف جزر مجموعة لو بكونها جزراً جميلة تمّت المحافظة عليها، بل وتُوصف بالجزر المثالية. وكثيرا ما ننعت بالشعب المضياف، اللطيف في علاقاته مع الغير. وهذا أمر صحيح.

احتجاجا على تأثيرات التغيّر المناخي، قام ثلاثون «محاربا في سبيل المناخ من المحيط الهادئ»، يمثلون 12 شعبا من سكان الجزر، بمحاصرة أكبر ميناء لنقل الفحم في العالم الواقع في استراليا، بمساندة من مئات الأستراليين. أكتوبر 2014، نيوكاستل.

© Jeff TAN

سفينة في مهب الريح

لكن الواقع أكثر تعقيدا، إذ أن بلداننا في المحيط الهادئ تقع على الخط الأمامي في مواجهة التغيّر المناخي. لقد وجدنا أنفسنا، دون أن تكون لنا أية مسؤولية في ذلك، على متن مركب يسير دون هدى، ويُبعدنا شيئا فشيئا عن سواحلنا وعن جزرنا المرجانية، ويُحوّل محيطاتنا إلى خليط حامض مليء بالبلاستيك، ويُبيض لون مرجاننا، ويُهدر مخزوننا من الماء والمؤونة. يرى البعض منا أن كل ذلك سوف يؤدي في نهاية الأمر إلى تدمير بيوتنا، وبلداننا وثقافاتنا بالكامل. وبالنسبة لنا جميعا، سوف يتسبب الوضع في تغيّرات عميقة لن يقدر أجدادنا على معالجتها، ولن تتوفر لأبنائنا الوسائل للإستعداد لمواجهتها.

لم تشهد قريتي أبدا قوارب مُجهّزة بمحرك آلي. نحن ننتمي إلى تلك التجمّعات القليلة التي ما زالت تُبحر بواسطة المراكب الشراعية. الجيل الذي سبقني هو الجيل الأخير الملم بطريقة صنع ذلك النوع من المراكب وصيانتها. كنت في الثالثة من عمري لما فارق أبي الحياة على متن واحد من آخر مراكب دروا، بين جزيرتي لو وسوفا.

الجماعة التي أنتمي إليها تُعد من بقايا الماضي. قواربنا الصغيرة ليست سوى صورا شاحبة لسفن دروا العملاقة التي كان يصنعها أجدادنا وأسلافهم. نحن نستعمل القوارب كل يوم للذهاب إلى الشعب المرجانية، والصيد والتزوّد بالمؤونة، حاملين في مخيلتنا حلما بعيد المنال، مليء بالأساطيل الضخمة التي كان يُرسلها قادتنا إلى بلدان أخرى واقعة في الجانب الآخر من عالم، جانبا كنا نعرفه.

حلم الطفولة

ما العمل؟ قررنا عدم التسليم بمصيرنا والأخذ بزمام الأمور. فقمنا في السنوات الماضية بإعادة إحياء تراثنا البحري. شخصيا، أسعفني الحظ بالخروج مع أسطول صغير، للتجوال عبر المحيط الهادئ.

قطعنا المحيط مرارا، من جزيرة إلى أخرى، ثم من قارّة إلى أخرى – بين أمريكا وأستراليا. وفي كل مرحلة، بلّغنا رسائل أمل: لم يفت الأوان! لدينا فرصة لإنقاذ العالم من الغيبوبة التي زجّه فيها الاستِهلاك المُفرط والعولمة. لنضع حدّا للتدمير الأحمق لمحِيطنا وكوكبنا.

وها أن ثقافتنا الموروثة عن الأجداد تُولد من جديد في كل أنحاء المحيط – من مانوس في بابوا غينيا الجديدة إلى جزر بولينيزيا الفرنسية، مرورا بنامدريك في جزر المارشال – لكننا على وعي بأننا لم نخط سوى خطوة أولى، وبأن هذه الخطوة ليست كافية لإيقاف المدّ الصاعد.

ومع ذلك، من المُؤكّد أننا، إذا أضعنا ثقافة الملاحة الخاصة بنا، سنكون قد خسرنا كل شيء. في الماضي، كانت مراكبنا تُسمّى واكا تابو (السفن المقدّسة). وبقيت لحد الآن شعارنا، وإرثنا، والعنصر المكون لشَخصيتنا وهويتنا. هي رموز عهد كنا نعيش فيه في انسجام مع الرياح والأمواج، لما كنا شعبا كبيرا في محيط شاسع.

تُجسّد تلك المراكب الأواصر التي تربطنا بماضينا، أواصر لم تُقطع نهائيا. ليس لدينا موارد كثيرة، لكننا نبذل ما في وسعنا لبقاء ما تركه لنا أسلافنا، والحفاظ عليه لصالح الأجيال القادمة. نقوم اليوم ببناء مراكب جديدة، وبالرغم من صغر حجمها، فهي تسمح لنا بالاستعداد للمرحلة اللاحقة، يوم تنطلق مراكب دروا لتجوب من جديد أرجاء المحيط الهادئ.

يجب أن نبدأ من البداية. فبناء المستقبل يرتكز على دروس الماضي. لما كنا في سن الطفولة، كان أولياؤنا يُعلّموننا صناعة الباكانانوا، وهي نماذج مُصغّرة من الدروا. بعد حصة الدراسة، أو في عطلة نهاية الأسبوع، كنا نأخذ تلك المراكب الصغيرة لتنظيم سباقات. ومن حسن حظي أنني كنت من الأطفال القلائل من جيلي الذين كبروا *«وهم يمارسون الملاحة»*، مثلما كان يفعل أسلافنا منذ آلاف السنين.

إذن، ما عساني أن أفعل الآن، أمام تغيّر المناخ، سوى بناء دروا والانطلاق على متنه نحو جزيرتي، وكل أشرعته مفتوحة.

ف. تيكواديليماكوتو تويموس ملّاح شاب من جمهورية فيجي، أصبح الناطق الرسمي لشعوب البحر. شارك في ندوة «زمن الشك والمرونة: الشعوب الأصلية والتغيرات المناخية»، التي التأمت في اليونسكو يومي 26 و27 نوفمبر 2015.

بعد أن فقدت منزلها للمرّة الرابعة، وجدت مونتو شاذو ملجأً على أراضي شقيقها.

في بلاد الأنهار المجنونة

أب يصطحب ابنه في إحدى الجزر المؤقتة وقد غزتها الأعشاب الملائمة لتربية البقر الحلوب

الصور: بروتيك ساركر

النص: كاترينا مركيلوفا

تنشر رسالة اليونسكو هذا التحقيق المُصوّر بمناسبة اليوم العالمي للمياه، في 22 مارس.

اكتشف البنغالي بروتيك ساركر، خلال السنوات 2000، لما كان تلميذا في التعليم الثانوي، رواية *بادما ريفر بوتمان* (بحّار نهر بادما) للكاتب مانيك بندوبادهيايا، التي تعد من روائع الأدب البنغالي للقرن العشرين. ولم تكن العلاقة بين الإنسان والماء التي رسمها الكتاب غريبة عليه، تلك العلاقة الخصوصية التي تمثل في نفس الوقت مصدر رخاء بقدر ما هي مصدر هلاك. يعيش بروتيك ساركر، الذي وُلد في «بلاد الأنهار المجنونة»، مثل سائر أبناء بلاده الذين يبلغ عددهم 162 مليون نسمة، على وقع مواسم الأمطار التي تتسبب في فيضانات تغمر ثلث الأراضي كل سنة، بين شهري مايو وسبتمبر.

لهذه الفيضانات آثار مُدمّرة على الأراضي والسكان، وتجرف الأنهار كل سنة تربة الأراضي الصالحة للزراعة على مساحة تقدر من 1.500 إلى 3.500 هكتارا*. لكن نفس هذه الفيضانات هي التي تزيد في خصوبة أراضي دلتا البنغال التي تتقاسمها البنغلاديش والهند.

* خلال سنة 2017، اظطر حوالي 950.000 شخص على التنقل إثر الحوادث المناخية القصوى، .حسب مركز رصد النزوح الداخلي.

هي أراض سِلِسة وراوية، مُتكوّنة من رواسب المجاري المائية البنغالية التي يبلغ عددها 230، مما يحث الفلاحين على البقاء على ضفاف الأنهار رغم المخاطر التي يتعرضون لها. وفي طريق العودة إلى الضفاف لإعادة بناء حياتهم من جديد بعد أن خسروا كل شيء، يردد الفلاحون أنشودتهم: *«كان ملكا في الصباح، ليصبح متسوّلا في المساء»*.

انبهر التلميذ بقدرة شعبه العجيبة على البقاء على تلك الأراضي التي تنبسط أو تتلاشى حسب هوى الفيضانات. وعندما أصبح مُصوّرا محترفا، بعد بضع سنوات، سلك بروتيك ساركر الطريق المحاذية لنهر باندا الضخم، وقد اختار كنقطة انطلاق الحدود الفاصلة بين بنغلاديش والهند، حيث تنصبّ مياه نهر الغانج في النهر البنغالي.

وفي يوم 3 نوفمبر 2011، عند غروب الشمس، كان شاهدا على انهيار كتلة من الضفة وقد ابتلعها النهر: *«فجأة، رأيت بأم عيني ما وصفته الرواية التي قرأتها عندما كنت في المدرسة»*. جدّت الحادثة في أوبازيلا في إقليم إشواردي. ويُضيف ابن العاصمة دكا: *«تأثّرت كثيرا بما شاهدته: ناس يفقدون مساكنهم، وأراضيهم، وكل ما يكسبون... ومع ذلك يبقون أقوياء ومُتفائلين»*. وظل يتردد على المكان طيلة سبع سنوات ليُنجز مجموعته الفوتوغرافية *«أوف ريفر أند لوست لاندس»* (أنهار وأراضي مفقودة).

ويُواصل بروتيك ساركر حديثه قائلا: *«هي قصة الأماكن المندثرة. أردت أن تُظهر الصور شيئا من الحزن ومن الإحساس بالخسارة»*. وقد اقتصر على تصوير إشواردي حين عمّ الضباب سماءها في فصل الأمطار. *«تُبيّن المجموعة مدى عجز البشر أمام الطبيعة. لكنها تُظهر أيضا الدورة الأبدية لعودة الحياة»*. في نهاية الفصل، تبرز على سطح الماء جزر مؤقتة يُطلق عليها اسم شار، وتستقبل الآلاف من السكان الذين بقوا بدون أرض**.

**حسب المجلة الفرنسية «هوم إي مغراسيون» (بشر وهجرة)، يقدر عدد سكان هذه الجزر المؤقتة بخمسة ملايين نسمة.

بقيت الفتاة بريشتي وحيدة،بعد انتقال عائلتهاجرّاء الانجراف الذي أحدثته الأمطار.

غادر شوم ناث كومار قريته نهائيًا بعد أن خسر كل شيء.

يُمثّل الصيد البحري أحد أهم موارد العيش لسكان القرى.

تتفاقم شدة وقع العناصر الطبيعية يوما بعد يوم تحت تأثير التقلب المناخي، ويبدو أن السكان قد تكيفوا مع الوضع قدر المستطاع. وتبقى بنغلاديش عرضة لارتفاع المحيطات باعتبارها متكونة أساسا من سهول منخفضة. وهي من بين البلدان الأكثر هشاشة نظرا لِتكرر الأحداث المناخية القصوى وتفاقمها، واستفحال ذوبان الأنهار الجليدية في جبال الهيمالايا، منبع أنهار الدلتا.

ويبقى التوازن الهش الذي يتراءى إلينا من خلال صور بروتيك ساركر، معرضا لعوامل قاسية.

بعد أن فقدت أرضها، وصلت هذه العائلة إلى إحدى الجزر المؤقتة التي طفت بعد الفيضانات.

رغم عدم امكانية التنبّؤ بمصيرها، تبقى هذه الجزر المؤقتة جذابة بالنسبة للفلاحين.

رحيمة وأفراد عائلتها
مستقرون خارج الجزر المؤقتة،
لكنهم يمارسون فيها زراعة
الفول السوداني.

رجلان يسيران بحذر على طول ضفة نهر منهارة.

العودة من المدرسة.

يد صانع المراكب البحرية.

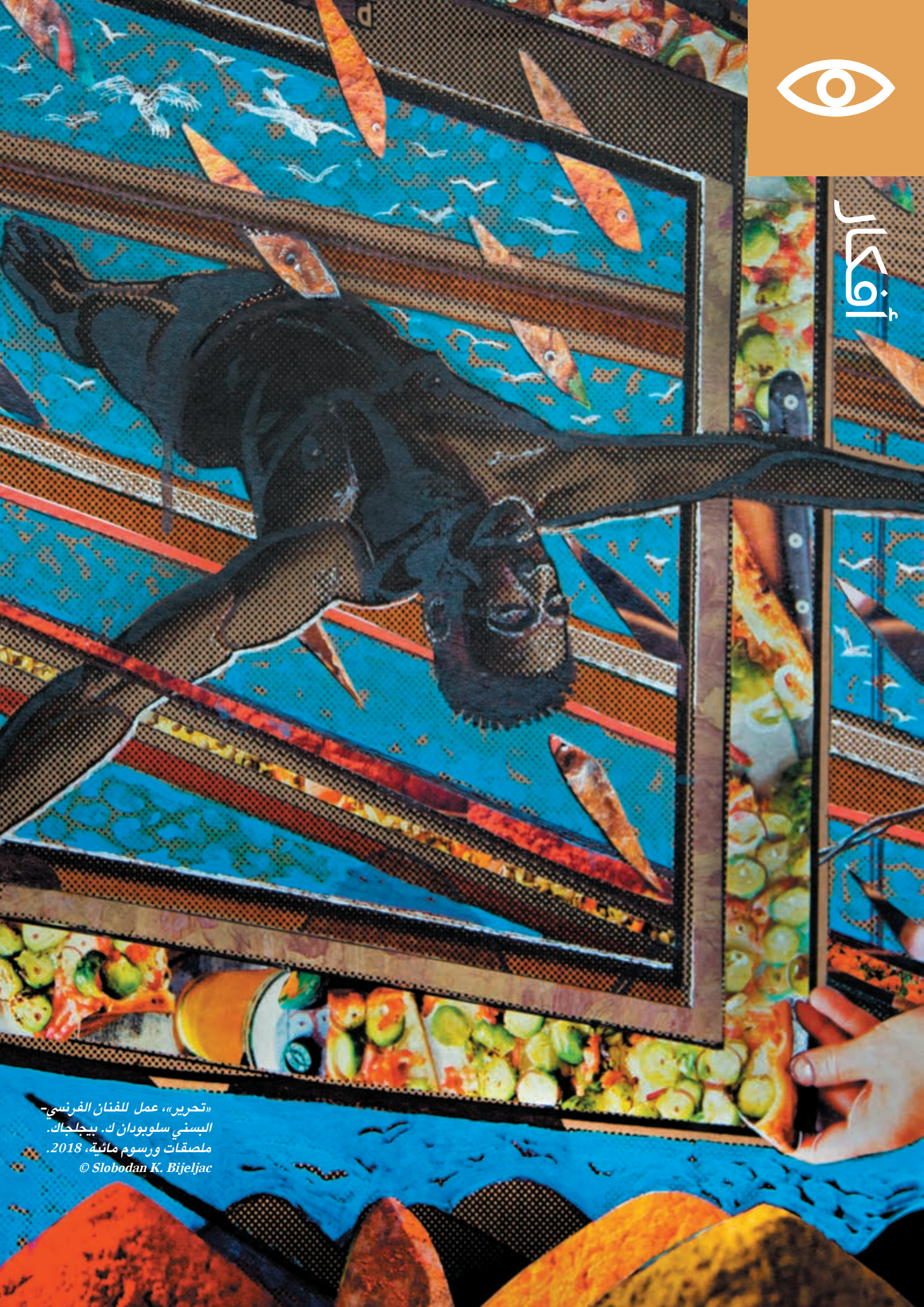

«تحرير»، عمل للفنان الفرنسي-البسني سلوبودان ك. بيجلجاك. ملصقات ورسوم مائية، 2018.
© Slobodan K. Bijeljac

تأمّلات في الحرية والفن

بقلم ويستان هيوغ أودن

«الشعراء ليسوا بمُشرّعي العالم الذين تم تجاهلهم»، كما ورد في المقولة الشهيرة للشاعر البريطاني شالاي، «لم يكونوا كذلك أبدا، ويُستحسن أن نسعى لإقناعهم بذلك». هذا ما كتبه ويستان هيوغ أودن في نصّ لم يُنشر منذ أن كتبه سنة 1947. يطرح أودن تساؤلات حول حدود الحرية والفن، وعن قدراتِهما الكامنة والتفاعلات في ما بينهما. نظرة هذا الكاتب الأنجلو-أمريكي بعيدة عن منظور الحركة الرومانسية التي تمنح للفن أهميّة أكبر من أهميته الحقيقية، بل هو يُؤيّد النظرة الشكسبيرية: الفن مرآة تعكس الطبيعة.

هذا المقال لـ و. ه. أودن – الذي تنشره *رسالة اليونسكو* بترخيص كريم من ورثته – هو ذات النص الذي أرسله المؤلف سنة 1947 ردا على تحقيق اليونسكو حول الأسس الفلسفية لحقوق الإنسان. وقد خصصت *الرسالة* في عددها المؤرخ أكتوبر-ديسمبر 2018 ملف «زاوية كبرى» لهذا التحقيق، تحت عنوان «حقوق الإنسان: عودة إلى المستقبل».

الحرّية تعني ضمنيا حرية الاختيار. نُمارس تلك الحرية عندما نواجه وضعيات متعددة ممكنة، فنختار ردة فعل واحدة ونستبعد كل الإمكانيات الأخرى. إن الاختيارات الحرّة هي اختيارات قاطعة. وقد تحمّس علماء اللاهوت الليبراليون – بكل غباء – لمبدأ هايزنبرغ، ذلك أن السلوك المتردد قد يُلائم الإلكترون، لكنّه لا يُرضي الإنسان الحرّ بما فيه الكفاية.

هناك ثلاثة أنواع من الاختيارات:

اختيار الفعل: الرجل العطشان الذي يجد نفسه في قلب الصحراء ليس حرّا، لا لأنه غير قادر على إطفاء ظمئه، وإنما لأن ليس بإمكانه الاختيار بين أن يشرب الماء أو لا يشرب.

اختيار الحكم على القيمة: جيّد أو سيّء، صحيح أو خاطئ، جميل أو قبيح، مطلق أو نسبي، إجباري أو ممنوع. الإنسان الذي لم يُشاهد غير صورة واحدة ليس حرّا بأن يُقرّر إن كانت جميلة أو قبيحة. كما أن الإنسان الذي يُوجد تحت وطأة الغضب أو الخوف ليس حرّا، لأنه لم يعد واعيا بأي حالة نفسية أخرى ولم يعد قادرا على تقييم مدى غضبه أو خوفه.

اختيار السلطة: يجب الإيمان بذلك الإله، أو ذلك الإنسان، أو تلك المنظمة وطاعتهم في كل الحالات. هنا أيضا، إذا غاب الوعي أو امكانية الاختيار، غابت الحرية.

إن التعطّش الروحي للإنسان يختلف تماما عن شهواته الطبيعية مثل الجوع أو الرغبة الجنسية. أذكر نوعين منه: التعطّش إلى التحرّر من الوضعية الشخصية والتعطّش إلى القيمة الذاتية. والنوعان قد يكونا – بل هما فعلا في كثير من الأحيان – مُتصارعين. ذلك أنه في الحالة الأولى، يرى الإنسان في كل ما هو *«مُعطى»*، سواء من طبيعته الشخصية أو من العالم الذي يُحيط به، أنه يحدّ من حرّيته، ممّا يجره إلى سلوك غير مبرر، في حين أنه لا يُمكن له أن يشعر بقيمته إلا باعتبار ما هو *«مُعطى»*، لا غير. كل الحالات الإعتباطية المطلقة من شأنها أن تكون في نفس الوقت تافهة بشكل مطلق.

الفن بمثابة اللعبة

من بين المحاولات البشرية لإطفاء هذين النوعين من التعطش، نذكر الفعل الإجرامي دون مبرّر، ومخالفة القانون لمجرّد المتعة بالمخالفة، حيث يمنح القانون أهميّة الفعل، وتتأكّد الحرية من خلال مخالفة القانون. محاولة أخرى تتمثّل في اللعب، حيث يحترم اللاعب قواعد اللعبة لأنه هو الذي وضعها. في الواقع، كل شكل من أشكال الفن، وكل علم محض، وكل إبداع، هو بمثابة اللعبة. أما السؤال «ما هو الفن؟» والسؤال «لماذا يُبدع الفنان؟»، فهما مسألتان مختلفتان.

يبدو لي أن ما يحثّ على الإبداع، مهما كان نوعه، هو الرغبة في تحقيق شيء ضروري لا مناص منه. وتبقى الرغبة في أن يؤول إلى شيء هام أمرا ثانويا.

إن أهمية اللعبة في نظر اللاعب تقاس بمدى تعقيد قواعدها. بقدر صعوبة ممارستها، بقدر ما يتسنى له اختبار مواهبه الفطرية أو كفاءته المُكتسبة وإثباتها. وحيث أن اللعب مقبول اخلاقيّا، فإن المشاركة فيه لا تتوقّف إلا على وجود الرغبة في اللعب من عدمها، أي على مهارة اللاعب. إذا سألنا جرّاحا ماهرا لماذا يُجري العمليات الجراحية، وإذا كان صادقا، لن يُجيب بأنه «من واجبه إنقاذ الأرواح»، بل «لأنه وَلوع بممارسة الجراحة». وقد يكِن الجراح للمريض كراهية قصوى، إلا أنه سوف يُنقذ حياته لأنه يجد متعة في ممارسة كفاءته.

يجب إذن أن نقول، بالمعنى العميق للكلمة، بأن ممارسة الفن والعلم هي من قبيل العبث لأنها مرتبطة بمواهب خصوصية مَنحتها لنا الصدف. والجانب الجدّي الوحيد يتعلق بما نملكه جميعا كذوات بشرية، تلك الإرادة الداعية إلى أن نحب غيرنا كما نحب أنفسنا.

إذا غاب الوعي أو امكانية الاختيار، غابت الحرية

وفي هذا الصدد، لا مجال للحديث عن موهبة للحب، ولا عن متعة وألم. فإذا سألنا السامري الصالح لماذا أنقذ الرجل الذي سقط بين أيدي اللصوص، لن يجيب «لأنني أحب فعل الخير» – إلا إذا أراد الهزل – لأن المتعة والألم ليست لهما أية علاقة بالموضوع: الأمر يتعلق فقط بالطاعة لوصيّة «ستُحب».

حبّ مشترك

هناك ثلاثة أصناف من المجموعات الإنسانية:

- الحشود، أي شخصان أو أكثر، خصوصيتهم المشتركة الوحيدة هي وجودهم مع بعضهم. مثال ذلك: أربعة أجانب في نفس عربة القطار.
- المجتمعات، أي شخصان أو أكثر تجمعهم غاية تحقيق عمل يتطلّب مشاركتهم جميعا، مثال ذلك: رباعي عازف على آلات وترية.
- التجمعات، أي شخصان أو أكثر يجمع بينهم حب مشترك لشيء ما غير أنفسهم، مثال ذلك: قاعة مليئة بعشّاق الموسيقى.

للمجتمعات حجم وهيكل مُحدّدان، ويختلف طابعها عن طابع مجموع الأجزاء المكونة لها. لذلك، فإن إرادة العضو الفرد تخضع للإرادة العامة للمجتمع، مهما كان مضمون ما اتُّفِق عليه.

© Pejac

عضو الرباعي العازف على الآلات الوترية يجب أن تتوفر لديه القدرة على تقرير ما ستَعزفه المجموعة – قطعة موسيقية لموزار أو لبيتهوفن – وعلى الأعضاء الآخرين طاعته، سواء كان الاختيار ملائما لهم أم لم يكن. والمجتمع يُمكن أن يكون في ذات الوقت تجمّعا، ولكن ليس بالضرورة. إذ يُمكن أن يكون عازف الكمنجة الكبيرة في الرباعي الذي تحدّثنا عنه يكره الموسيقى ولا يعزف إلا لكسب قوته. فالمجتمع حرّ طالما أن من تعود له السلطة لا يُمارسها إلا بموافقة حرة من كل الآخرين.

> *"عالم الفن هو عالم المرآة، أو بعبارة أخرى، هو صورة ممكنة للعالم الحقيقي حيث تقع معاينة العواطف بصفة منفصلة عن الشغف الفوري الذي أحدثها"*

تخ-ريب، تكريم لإدوار ماني، عمل للفنان الإسباني بيجاك، 2014.

والمجتمعات تسير بطريقة أفضل طالما كانت حرّة، لكن في بعض الحالات، يمكن بل ويجب فرض بعض القيود لإجبار أحد الأعضاء المتمرّدين على أداء وظيفته التشاركية. أما التبرير الأخلاقي لذلك فيعتمد على عاملين:

- أهميّة الوظيفة المُناطة بعهدة المجتمع
- مدى امكانية تعويض العضو المُتمرّد بعضو آخر أكثر استعدادا.

ومثلما هو الشأن بالنسبة إلى الحشود، فإن التجمّعات ليس لها حجم مُحدّد. فلا يُمكن إذن الحديث عن «إرادة جماعيّة» لتجمّع ما، بما أنه لا يُمكن أن يوجد خلاف بين الأفراد المُكوّنين له: فهم ينتمون لذلك التجمّع بالذات لأن لهم، كأفراد، نفس الميولات (على عكس أعضاء الحشود الذين ليس لديهم أي ميولات مشتركة). وقد جاء في تصريح لفلاديمير كورتسكي خلال ندوة الأمم المتحدة حول حقوق الإنسان، نشرته مجلة *تايم ماغازين* الصادرة بتاريخ 23 يونيو [1947]: «لا يُمكن لأحد أن يحظى بأي حقّ يجعله في خلاف مع تجمّعه. ومن كان في خلاف مع تجمّعه، فهو لا شيء». فإذا كانت الترجمة موثوقة، فإن كلام كورتسكي غير معقول تماما.

قد يكون الفرد في خلاف مع المجتمع (مثلا، لما يؤدي عازف الكمنجة الكبيرة بنشاز)، لكن إذا كان بقية أعضاء الرباعي مولعين بموزار وهو يكرهه، فذلك يعني ببساطة وجود تجمّعين – تجمّع يتضمّن أفرادا يُحبّون موزار، وآخر مُحتمل يجمع أفرادا يكرهونه – لأن التجمع يُمكن أن يقتصر في البداية على فرد واحد، بينما وجود المجتمع مشروط بحضور كافة أعضائه وارتباطهم بشكل صحيح.

هناك صنفان من التجمّعات: التجمعات المُغلقة أو الخاضعة، والتجمعات المنفتحة أو الحرّة. أعضاء التجمّع المُغلق لهم ميل مشترك، لكنهم لم يختاروه لأنهم ليسوا على علم بوجود ميولات أخرى بديلة يمكن لهم مقارنتها بما يشعرون، ليُحبّذوها أو ينبُذوها. أما أعضاء التجمّع المنفتح، فهم اختاروا عن وعي ميولاتهم من بين أخرى ممكنة.

الفنّ مرآة

إن كنت قد فهمت جيدا أسطورة أورفيوس أو تعريف التطهير النفسي عند أرسطو، فإن نظرية اليونانيين حول الفن هي نظرية خاطئة حسب اعتقادي، وقد ابتلى العالم، منذ ذلك العهد، بتلك النظرية القائلة بأن الفن عصا سحرية ترمي إلى إثارة العواطف الجيّدة وإبعاد السيّئة، للحث على السلوك المناسب. فإن كان الأمر كذلك، كيف نُفسّر فرض الرقابة على الفن الذي دعا له أفلاطون في *الجمهورية* أو تولستوي في *ما الفن*؟

التعريف الجيد، في اعتقادي، هو تعريف شكسبير الذي نصب مرآتا أمام الطبيعة. أي أن الفن لا يُغيّر ما أُحسّ به، لكنه يدفعني إلى الوعي بما أحسست به أو بما يُمكن أن أحسّ به، وبالعلاقات الفعلية أو الممكنة بين أحاسيسي. إن عالم الفن هو عالم المرآة، أو بعبارة أخرى، هو صورة ممكنة للعالم الحقيقي حيث تقع معاينة العواطف بصفة منفصلة عن الشغف الفوري الذي أحدثها. ودور الفنان هو أن يخلق هذه المرآة التي تعكس صورة للعالم بأكثر ما يُمكن من الإحكام والشمولية. أما الفن الرديء، فهو يُشوّه الواقع، والفن المستصغر لا يعكس سوى زاوية ضئيلة أو تافهة من العالم.

© Monika Nikolic

الفن لا يُصدر أحكاما

للفن قيمتان: هو أوّلا يمنح متعة، متعة الفضول التافه، ثُمّ إنه يُوسّع مجال الحرية. فإن لم يكن للإنسان خيال، ووجد نفسه أمام طريقين ممكنين، لكان إما مضطرا على أن يسلك كلاهما، أو أن يقيم أحد أحاسيسه قبل أن يشعر بعكسه.

فالفن لا يُؤثّر، بل ولا يُمكن له أن يُؤثّر، على الاختيار أو على التقييم الذي نحمله في آخر المطاف، إنما هو، فقط، يُعطي لذلك وعيا أكبر.

إن قراءة مسرحية مكبث، مثلا، لا يُمكن أن تمنع فردا من ارتكاب جريمة قتل، لكن الذي قرأ مكبث يعلم معنى أن يكون قاتلا أكثر من الذي لم يقرأها، بل إنه، إذا قرّر أن يُصبح قاتِلا، فسوف تكون مسؤوليته أكبر.

بعبارة أخرى، لم يكن الفن أبدا وسيلة تُحوّل تجمّعا سيّئا إلى تجمّع جيّد، وإنما هو من الوسائل الهامّة التي تُحوّل التجمعات المُغلقة إلى تجمّعات مُنفتحة.

كما أن الفن يمكن له أن يضرّ بطريقتين. أولا عندما يكون رديئا ويُؤدي بالتالي إلى متعة من النمط القبيح. فلما يرسم صورة خاطئة للعالم، ويجامل المشاهد بتجاهل الجوانب السلبية أو يزرع فيه اليأس بنكران الجوانب الإيجابية (ومن الغريب أن الشعور باليأس قادر على توفير المتعة)، فإنه يكون قد أساء له.

والطريقة الثانية، وهي الأخطر، فتتمثل في أن الفن بقدر ما تعلو جودته بقدر ما يتفاقم خطرُه، مما يجعله قادرا على حشر المُشاهد في شلل حسّي ممتع للتأمّل في ذاته، إلى درجة العزوف عن الاختيار، على غرار هاملت. النرجسية: ذلك هو خطر الفن الراقي. لم يكن نرسيس عاشقا لظلّه من أجل جماله، وإنما لأنه ظله، بكل امكانياته اللامتناهية.

يمكن أن نروي هذه الأسطورة على نحو آخر، لنجعل من نرسيس أحمقا مُصابا باستسقاء الدماغ. عندما رأى صورته على سطح الماء، صاح: *«هذا الوجه يُلائمني!»*. أو لِنقل إن نرسيس لم يكن لا وسيما ولا قبيحا، وإنما كان شكله مألوفا كما هو حال زوج ثوربر*: عندما اكتشف صورته منعكسة على سطح الماء، صرخ: *«عفوا، ألم نلتقِ سابقا في مكان ما؟»*

إن الفن قادر على الدفع نحو تكوين صنفين من التجمّعات السيّئة: تجمّع الذين لديهم صورة خاطئة عن ذواتهم، وصنف آخر يتمثل في تجمع هو في الحقيقة ليس إلا صورة ساخرة من التجمّع الحرّ حيث تكون معرفة الخير والشر موجهة ضد الإرادة، وبالتالي تضعف الإرادة إلى درجة أنها تصبح غير قادرة على الاختيار.

إن كل عمل فنّي يمثل نقطة محوريّة لتكوين تجمّع مُحتمل بين الأفراد الذين أُعجبوا به أو الذين لهم قابليّة لذلك. هذا التجمّع حرّ، لأنه كان بإمكان الفنان، فعلا، ابتكار شيء آخر، لكنه اختار انجاز ذلك العمل بالذات. والعكس بالعكس: إن المشاهدين أو القرّاء كان بإمكانهم مشاهدة أو قراءة عمل آخر، لكن اختيارهم أرسى على ذلك العمل. فإذا ابتكر فنان عملا، وكان هو الوحيد المُعجب به، أو إذا كان هناك مُشاهد لم يجد أي عمل يروق له، فإن ذلك لا ينفي وجود الحرية: ذلك يعني، ببساطة، غياب أي تجمّع.

ويمكن عرقلة الحرية بإحدى الطريقتين: إما أن يُرغم الفنان على إدخال تغيير على عمله، وبالتالي يصبح الطابع الذي يُميّز التجمّع مُختلفا عمّا كان سيكون عليه لو تُرك الفنان يبدع حسب هواه، وإما أن يُمنع المشاهدون من النفاذ إلى العمل الفني، فيُصبح التجمّع أقل عددا ممّا كان يُمكن أن يكون عليه لو لم يحصل المنع.

الرقابة

يُمكن أن تمارس الرقابة في شكلين. يتمثل الأول في رقابة اقتصادية غير مُبرمجة – عندما يفتقد الفنان إلى الإمكانيات الضرورية للإبداع حسب إرادته، أو عندما يكون المشاهدون غير قادرين على دفع ثمن التمتع بالعمل الفني –، والثاني في الرقابة المُخططة من قبل السلطة. على المستوى الاقتصادي، أفضل طريقة لبلوغ الحرية في الفن هي وجود أكبر تنوّع ممكن في أوساط الناشرين، وأصحاب المكتبات، وفي ديار الكتب وأروقة الفنون، الخ...، على أن يكون بعضهم، وليس جميعهم، ذوي قدرات عالية.

* «الزوج» شخصية متواجدة في العديد من مؤلفات الكاتب الهزلي الأمريكي جيمس ثوربر (1894–1961).

«بارثينون الكتب»، نصب للفنان الأرجنتيني مارتا مينوين عرض في دوكيمنتا 14 في مدينة كاسل (ألمانيا) سنة 2017. وقد تمّ تصميمه باستعمال كتب ممنوعة سابقا أو حاليا في بعض الدول، كرد فعل ضد الرقابة.

> "الفن لا يُغيّر ما أُحسّ به، لكنه يدفعني إلى الوعي بما أحسست به"

وإذا فاق عدد المؤسسات المستوى المناسب، وخاصّة إذا كان هناك احتكار من قبل الدولة، فسوف يتقلص تنوّع الأعمال المتوفرة، حتى في صورة غياب الرقابة المتعمّدة. أما إذا كانت كل المؤسسات صغيرة الحجم، فإن التكاليف تُصبح باهظة جدا بالنسبة لجزء من الجمهور المُحتمل.

إحدى العقبات التي كثيرا ما اعترضت الليبرالية، تكمن في سهولة احترام حرية من ليس له أهمية في نظرنا، أكثر من حرية من نُقدّرهم. إذا كان الوليّ أو الحكومة على يقين من جودة شيء ما أو من صحته، فكلاهما يعلم دون شك أنه بإمكان الأبناء أو الشعب اختيار ما هو في نظره سيّئا أو خاطئا، وكلاهما يعلم أن الاختيار السيئ سوف يولد معاناة الذين يهمه أمرهم وأنه سيُعاني معهم. إضافة إلى ذلك، فإن الولي أو الحكومة لن يعد بعد ذلك ينتمي إلى نفس التجمّع الذي ينتمي إليه الذين يهمه أمرهم.

ومع ذلك فإن محبّة الآخر بقدر محبّة الذات تُؤدّي تحديدا إلى القبول بإمكانية قيام الآخر بأخطائه الخاصة، والقبول بالمعاناة معه عندما يُعاني من تلك الأخطاء، لأنه لا أحد يُريد عن وعي رفض مسؤوليته عن أفكاره وأفعاله، مهما كانت الكلفة. كل شخص قادر على التمييز بين حقوقه وواجباته، ويعلم أن من واجبه اختيار الخير، ولكن من حقّه أيضا أن يختار الشر، كما يعلم أنه، كما قال كافكا: *«نحن نكذب أقل ما يُمكن لأننا فعلا نكذب أقل ما يُمكن لا غير، وليس بسبب ندرة المناسبات المتاحة للكذب»*.

إن السلطات منشغلة بقيام مَنظوريها بالاختيار الأفضل، أكثر مما هي منشغلة بإعطائهم القدرة على الاختيار: لذلك فهي تسعى لاختزال الطريق. على المدى القصير، يتحرّك الإنسان الشغوف بأكثر سرعة ونجاعة من الإنسان الذي بلغ مرحلة التمعن الذاتي في رغباته. وهو ما جعل السلطات تريد، في أغلب الأحيان، أن يُثير الفنان لدى الآخرين التحمّس للخير، بدل أن يزرع فيهم الوعي بالخير والشر. وإن كان لها القدرة لجعلت منه صاحب «الكذبة النبيلة» لأفلاطون.

لم يحدث أبدا أن تمّ منع عمل فني لأسباب جمالية لأنه نادرا ما مارس الفنانون السلطة. وذلك أفضل، دون شك، لأنه لو كان الأمر بيدي، مثلا، لحكمت على من وجدته صدفة وهو يقرأ شالي أو يستمع إلى براهامس بالنفي في مناجم الملح، وعلى من بحوزته فونوغراف آلي بالإعدام.

للرقابة، عموما، سببان: إما الطابع اللاأخلاقي للعمل الفني، بمعنى قدرته على حث الجمهور على التصرّف بشكل لاأخلاقي أو منافٍ للقانون، مما يجعله مُضرا بحسن سير المجتمع، وإما طابعه الشاذ، أي أنه قادر على دفع الجمهور نحو تبنّي قيم غير القيم التي يدعو إليها النظام، وحثه على مغادرة تجمّعه ليلتحق بتجمّع آخر. وتستلزم ممارسة الرقابة دائما عنصرين: أن يوجد جمهور مُحتمل للعمل الفني، وأن يتكون ذلك الجمهور من أفراد غير قادرين على القيام باختيار مسؤول. وبالتالي، تكون الرقابة مقبولة في حالتين دون سواهما: في حالة القُصّر الذين يُفترض قانونا أنهم غير قادرين على الاختيار، وفي حالة الكهول الذين اختاروا عن قصد من يسلط عليهم الرقابة واحتفظوا بحريتهم في التخلي عنه عند فقدان ثقتهم في سلطته.

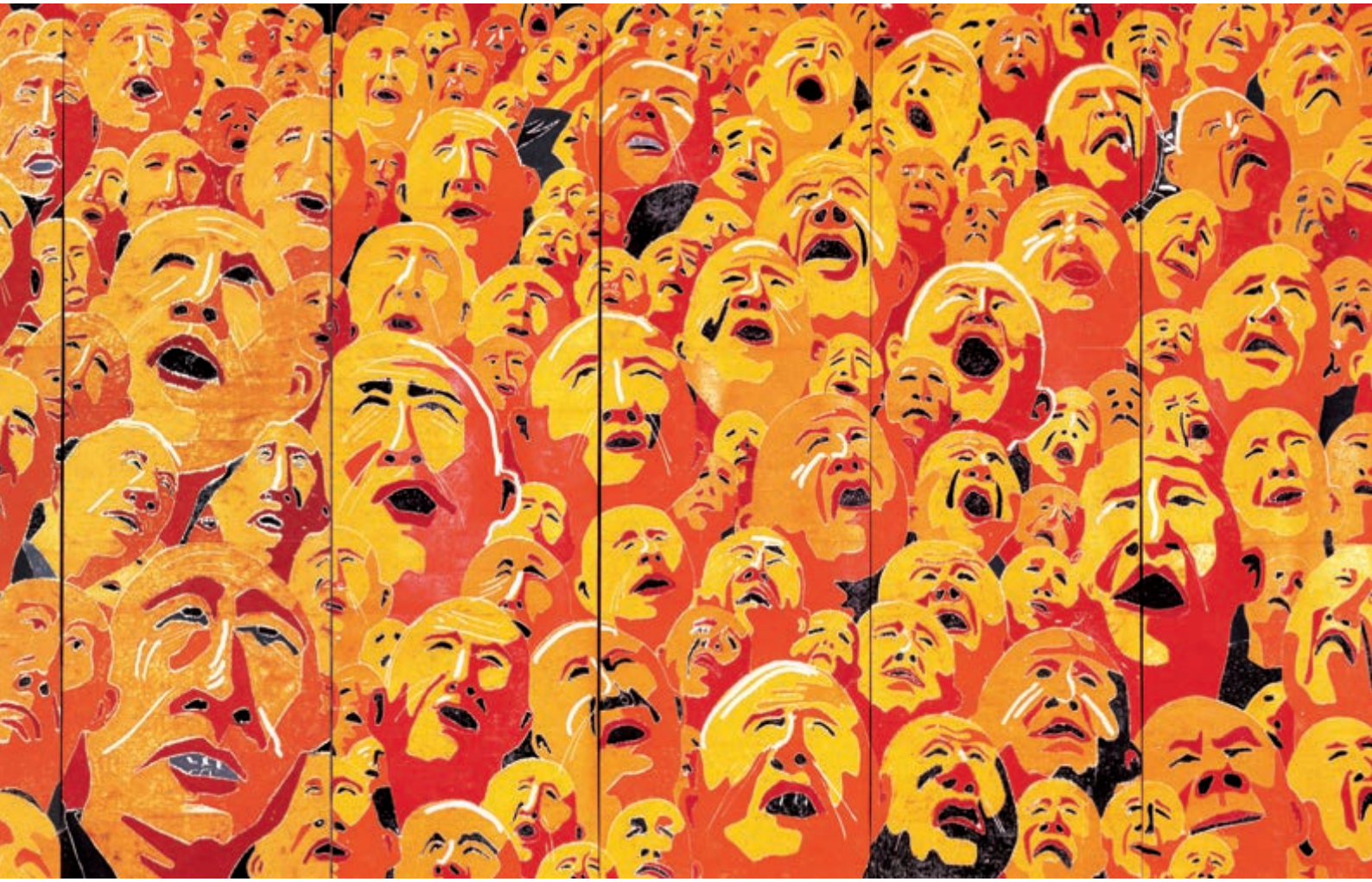

ومثالا على ذلك، لم تقم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية بانتهاك حرية أعضائها من خلال منع كتب مُعيّنة، لأن لا أحد مُجبر على أن يكون كاثوليكيا رومانيا، ولأن اختيار الإنتماء لتلك الكنيسة يؤدي حتما إلى الاعتراف بسلطتها التي تُقرّر ما يحقّ للمؤمنين قراءته.

وهذا لا يحقّ لأي دولة كانت، لأن انتماء الفرد إلى مجتمع سياسي يحدث عند الولادة، بمحض الصدفة، وهو ليس ثمرة اختياره.

الثورات وحرية الإنسان

كل ثورة هامة في التاريخ قامت دفاعا عن جانب مُعيّن من حرية الإنسان، ولكل واحدة منها شخصيتها الرمزية. وكل منها أسّس لنمط من الحرية خاص بها، بصفة دائمة. إلا أن نجاح أي ثورة مُهدّد بادّعائها الزائف بأنها هي الثورة الحقيقية بامتياز. بعبارة أخرى، كل ثورة، أيا كانت، تدعي أن جانب الحرية الذي دافعت عنه يمثل الحرية الوحيدة الجديرة بالإعتبار.

وبما أن كل ثورة تُدافع عن جانب خصوصي من الحرية، وأن هذا الجانب مآله استنكار واضح من قبل الثورة الموالية، فإنها، وفي إطار نقدها لفشل سابقتها، تميل إلى معاداة الحرية التي كافحت من أجلها الثورة السابقة. إلا أن مصير كل الثورات مرتبط بعضه ببعض، لذلك هي تنجح أو تفشل معا: فإذا لم تفز الثورة في المعركة التي خاضتها، فإن الثورة التي تليها لن تتمكن من خوض معركتها. وبالتالي، لا بد من تثمين انتصار الثورات السابقة حتى تحقق الثورة الحالية هدفها.

لقد منحت الثورة البابوية للقرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر للفرد حرية الاختيار بين عدة ولاءات، وحقه في الانفصال عن تجمّع للالتحاق بآخر، وحقه في الانتماء لمجموعتين في آن واحد. وكانت الشخصيتان الرمزيتان في تلك الثورة الكاهن المتصوّف الدولي والجندي المناضل المحلّي.

ومنحت ثورة الإصلاح، في القرن السادس عشر، للفرد حرية اختيار مساره المهني، والحق في مغادرة المجتمع الذي انتمى إليه والده ليلتحق بمجتمع آخر. والشخصية الرمزية فيها هو المهني الماهر.

أما الثورة الفرنسية والثورة الصناعية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر فقد منحت للفرد الموهوب إمكانية التطوّر بحرية والتنافس لجلب انتباه الجمهور. كما وفرت للفكر الفردي الحق في تغيير التجمّع أو قيادة المجتمع إن كان قادرا على ذلك. والشخصية الرمزية في هذه الحالة هي فيغارو. *«الفكر وحده قادر على تغيير كل شيء / من بين عشرين ملك نُمجّدهم / تكسر الموت قداستهم / ويبقى فولتير خالدا أبد الدهر»*.

عمل للفنان الصيني فانغ ليجون. بدون عنوان، نقش على اللوح، 2003.

© Fang Lijun / photo Centre Pompidou, MNAM-CCI, Dist. RMN-Grand Palais / Georges Meguerditchian

> *يتقاسم الرقيب العصري والفنان الرومنسي نفس الرأي: كلاهما يرى أن الفن أهم ممّا هو في الواقع*

فرد من الأفراد، وسط الحشد العالمي

تسعى ثورتنا في القرن العشرين لمنح الجسم الفردي حرية اقتناء ما يُرضيه، وما يضمن له الازدهار والصحة الجيّدة. شخصيتها الرمزية هي الإنسان العاري المجهول الحامل للوحة هوية مُرقّمة، والذي لا ينتمي بعدُ إلى أي مجتمع ولا إلى أي تجمّع، لكنه فقط فرد من بين آخرين وسط الحشد العالمي.

وهذا ما يفسر انشغال عصرنا بالطب والاقتصاد، وتحركاته المضادة وعداوته لحرية التعبير والفكر التي حققتها الثورة الفرنسية، باعتبارها تهديدا للإجماع. الجميع سواسية على المستوى البدني من حيث الحاجيات، أما الفوارق الفردية من حيث المزاج أو الموهبة، فلا قيمة لها.

وبالتالي، في ثورتنا هذه التي تتمحور حول تحرير الاحتياجات المادية**، كل الحريات المكتسبة من الثورات السابقة مُهدّدة. ولم يحدث ذلك من قبل. لقد تمّ التنكّر للثورة الفرنسية حيثما وُجدت رقابة على الصحافة وكبت للإبداع الفني والإبتكار العلمي. وهذا التنكر لمفهوم الإصلاح في الثورة الفرنسية مستشري حيث تُملي الدولة على الفرد مساره المهني. كما أن هناك تنكر للثورة البابوية حيثما تفرض دولة كلوية سلطة مطلقة.

يدفع اليوم الفرد الموهوب ثمن غرور أمثاله على مدى قرنين. الشعراء ليسوا بمُشرّعي العالم الذين تم تجاهلهم، بل لم يكونوا كذلك أبدا، ويُستحسن أن نسعى لإقناعهم بذلك. والذين دافعوا عن مذهب الفن للفن أو النظرية القائلة بأن الفن مادّة كمالية، كانوا أقرب إلى الحقيقة بكثير ولكن، ما كان لهم أن يروا في العبثية النسبية لمواهبهم حجة على تفوّقهم الذهني على العامل الصالح عديم الموهبة. في الواقع، يتقاسم الرقيب العصري والفنان الرومنسي نفس الرأي: كلاهما يرى أن الفن أهم ممّا هو في الواقع.

أي دور للشاعر؟

يقول الشاعر في غرفة المريض: *«ها أنه أصبح اليوم أزرق، بعد ما كان بالأمس ورديا. وتتساءل الممرضة: ما عساني أن أفعل؟». ألم يكن من الأجدر أن يُجيب المريض أو المُمرّضة: «كُفّ، بربّك، عن الإنشاد وأتِ لنا بماء ساخن وضمائد».* لكنهما لم يقولا شيئا. بل صاحت المُمرّضة: *«قل للمريض بأنني الوحيدة القادرة على رعايته، وإن فعلت فسوف أمنحك جواز سفر، وبطاقات إضافية لأقساط التموين وتذاكر مجانية للأوبرا. وإن قلت له أي شيء آخر، فسوف أخبر الشرطة».* أما المريض فيتوسّل في هذيانه: *«بشّروني بأنني في صحة جيّدة، وسوف أوفّر لكم شقة ذات طابقين وعشيقة جميلة. وإن كنتما غير قادرين على ذلك، فلن أنصت إلى ما تقولان».*

لو كان الشاعر يُحب فعلا المريض والمُمرّضة مثلما يحب نفسه، فلعلّه لازم الصمت وذهب لجلب الماء الساخن. لكنه طالما يُواصل الإنشاد، فسوف يبقى ممتثلا للوصيّة التي تملي عليه بـ*«ألا يدلي بشهادة زور ضد الغير».*

** وضع المُصلح البريطاني ويليام بفريدج سنة 1942 على رأس الأولويات الضرورية لمجابهة المشاكل الكبرى التي تواجهها بريطانيا العظمى، التحرر من الاحتياج والقضاء عليه بإعادة توزيع المداخيل صلب الطبقات الكادحة. وقد تولّت حكومة كليمنت أتلي التابعة لحزب العمّال تطبيق أجزاء هامّة من هذا الإصلاح إبان الحرب العالمية الثانية.

و. ه. أودن (1907-1973) شاعر، وكاتب مسرحي، وناقد، وملحن أنجليزي-أمريكي، من الشخصيات الأدبية المرموقة للقرن العشرين. هاجر إلى الولايات المتحدة سنة 1939 حيث درّس في العديد من الجامعات قبل الحصول على الجنسية الأمريكية سنة 1946.

واحدة من بين مائة معلّقة حول موضوع «واحد من أجل الجميع والجميع من أجل واحد!» من تصميم مائة رسّام من كل أنحاء العالم، بمناسبة الاحتفال بالذكرى السبعين للإعلان العالمي لحقوق الإنسان. حملة أطلقتها بوستر فور تومورو (معلقات من أجل الغد).

© posterfortomorrow 2018
Frank Arbelo

عبد الله أحمد النعيم

حقوق الإنسان، والدولة العلمانية والشريعة اليوم

عبد الله أحمد النعيم.
© بموافقة كريمة من معهد الحقوق بجامعة إيموري.

أجرت المقابلة شراز سيدهفا

يسعى عبد الله أحمد النعيم، وهو خبير في مجال حقوق الإنسان من منظور متعدد الثقافات، إلى التوفيق بين هويته كمسلم سوداني والتزامه بحقوق الإنسان الكونية. ويرى أنه ينبغي تركيز حقوق الإنسان على المواطنين، وليس على الدولة. ونظرا لوعيه بأن آراءه مثيرة للجدل، يؤكد النعيم أنه مستعد لمواجهة منتقديه، قائلا: *«بدون آراء معارضة، أفقد قدرتي على الإبلاغ»*.

عندما تشير إلى الكلمات الثلاث التي تبدأ بحرف «الميم» في ما يتعلق بحقوق الإنسان، ما الذي تعنيه بالضبط؟

أشير في بعض الأحيان إلى هذه الكلمات لأبيّن أبعاد حقوق الإنسان، ألا وهي المفهوم، والمضمون والمقام.

«المفهوم» هو الطابع الكوني، حيث أننا نتحدث عن حقوق الإنسان باعتبارها حقوق البشر أيّاً كانوا، ولكن ماذا نعني بالضبط؟ هل في مقدورنا حقا حماية حقوق البشر في حد ذاتها؟ وما هي الدولة التي تقوم بذلك؟ إن الحقيقة، مع الأسف، هي عكس ذلك، لأن الدول تستخدم خطاب حقوق الإنسان كسلاح تشهره في ما بينها لشيطنة سياساتها السلطوية، بدلاً من اعتبارها مبادئ كونية تستند إليها السياسات العامة لحماية كرامة جميع الكائنات البشرية.

ويشير *«المضمون»* إلى كل ما تجسده هذه الحقوق، وهنا علينا التسليم بأننا لا زلنا بعيدين عن الهدف المنشود، وأن حقوق الإنسان ما زالت غائبة عن السياسات العامة.

ويطرح *«المقام»* مسألة تطبيق مبادئ حقوق الإنسان على أرض الواقع، ومدى تمتع الأشخاص المعنيين بهذه الحقوق. ما معنى حقوق الإنسان بالنسبة للذين يقبعون تحت أعباء فقر مدقع ودائم في القاهرة أو كراتشي أو لاغوس؟ هل ساهمت تلك الحقوق في تحسين ظروف حياتهم؟

ما هو الدور الذي ينبغي للدولة أن تضطلع به لحماية حقوق الإنسان؟

ما ألاحظه، في كل البلدان، هو أن الدولة تقوم بحماية حقوق مواطنيها، أي الأفراد الذين يعيشون بصفة شرعية على أرضها، وليس حقوق الكائنات البشرية على وجه العموم.

لهذا السبب، يبقى اللاجئون والعمال المهاجرون، على سبيل المثال، محرومين من الحقوق التي يمنحها لهم الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. أما حقوق المواطنين والمقيمين بصفة شرعية، فإن الدولة هي التي تحددها وتقوم بمراجعتها باستمرار. كما أن الدولة هي التي تقرر التفاوض مع دول أخرى، والمصادقة على المعاهدات الدولية ذات الصلة أو تجاهلها، وتحديد شروط ونطاق حماية حقوق الأشخاص الخاضعين لولايتها القضائية.

إن مجال حقوق الإنسان خاضع بأكمله لسلطة الدولة. ولا يدّعي القانون الدولي إجبار أي دولة على القيام بعمل ما. إن منظمة الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية مكونة من عضوية الدول ومسيّرة من طرفها. لذلك ليس في مقدور هذه المنظمات سوى العمل حسبما تقتضيه الدول، وما تمليه عليها من شروط.

© MOMA, New York / SCALA, Florence

هذا الأمر الواقع يتطابق، بدون شك، مع المستوى الذي بلغته التنمية البشرية في الوقت الراهن، غير أنه ليس مؤاتيا لحماية حقوق الإنسان. وأرى تناقضا في التنظيم الذاتي الذي تمارسه الدول، بما أن الحقوق الأساسية من المفترض أن تكون خارج نطاق سيطرة الدولة ومناوراتها.

كيف يمكن إذا ضمان احترام حقوق الإنسان؟

أنا لا أقول إننا لسنا بحاجة لحقوق الإنسان، أو أن حماية هذه الحقوق لا يمكن تحقيقها. أريد التأكيد على ضرورة بلورة فكرة واضحة حول الأصول التي تتجذر فيها حقوق الإنسان، وحول كيفية تحديد معنى هذه الحقوق وطريقة تطبيقها.

في رأيي، ينبغي أولا أن يتولى تحديد معنى حقوق الإنسان الأشخاص الذين يعترفون بها ويطبقونها على أرض الواقع، وأن لا يُترك للسلطات الاستعمارية السابقة مجالا لفرضها على مستعمراتها القديمة، أو لمندوبي دول ما بعد الاستعمار، أوللبيروقراطيين الدوليين.

ثانياً، يجب تطبيق معايير حقوق الإنسان من خلال اتباع مراحل سياقية واقعية تتناسب مع احتياجات المجتمعات المعنية ومواردها، لا من خلال سَنّ تشريعات مدوية معروضة في إطار اجتماعات عقيمة تعقدها منظمات دولية أو مؤتمرات دبلوماسية أو أكاديمية.

ثالثاً، يجب أن ترتبط استراتيجيات التنفيذ ارتباطاً وثيقاً بالسياق، وأن توضع دائما تحت رقابة الأشخاص المعنيين بهذه الحقوق.

هل لك أن تضرب لنا مثلاً على ذلك؟

إن أردت، مثلا، مكافحة تشويه الأعضاء التناسلية للنساء في السودان، لن أتمكن من القيام بذلك من خلال إصدار بيان في جنيف. ولا حتى بموجب قانون تسنّه الدولة السودانية. لا بد لي من السعي لتغيير العقليات على الصعيد المجتمعي. هذا هو الحل الوحيد.

في السودان، قامت السلطات البريطانية بتعديل القانون الجنائي فأصبح ينص على معاقبة تشويه الأعضاء التناسلية للنساء بالسجن لمدة عامين، وذلك في عام 1946، أي العام الذي وُلدت فيه. وها أني بلغت من العمر 72 سنة، وما زالت ممارسة تشويه الأعضاء التناسلية للنساء سارية المفعول، وذلك بنسبة تفوق 90% من السكان. وحسب معلوماتي، لم يتم تقديم أي كان للمحاكمة. وينطبق ذلك على جرائم «*الشرف*». ومن الواضح أنه لا بد من إحداث تغيير في هذين المجالين.

ما هو أفضل سبيل لإحداث التغيير؟

علينا أن نتحرر من كبت الأفكار البيروقراطية، بغية إلهام مخيلة الناس ودفع عجلة التغيير.

في بعض الأحيان، يمتنع الناس عن إحداث التغيير لأنهم يظنّون الأمر مستحيل. لكنهم مخطئون. لننظر إلى ما توفقت إليه حركة الدفاع عن المثليين بفضل عزمها على تغيير الأوضاع.

عندما انتقلت عام 1995 إلى أتلانتا بولاية جورجيا في الولايات المتحدة للإقامة هناك (علما وأن في الولايات المتحدة، القانون العائلي صادر عن الأقاليم وليس عن النظام الفيدرالي)، كانت ممارسة اللواط تُعتبر جريمة يُعاقَب عليها بالسجن. أما في عام 2015، فقد أصبح زواج المثليين حقاً دستورياً.

وعندما نفكر في السرعة التي حدث بها هذا التطور، يتبين لنا أنه لا يجب البدء بتغيير القانون. إن التحول على المستويين الثقافي والاجتماعي صلب المجتمعات هو الذي يشكل القوة المحركة للتغيير، وليس نتيجته.

عندما تشير إلى ثقافة حقوق الإنسان التي يمكن تعزيزها من خلال الخطاب الداخلي والحوار بين الثقافات، ما الذي تعنيه بالضبط؟

حين أتحدث عن ثقافة حقوق الإنسان، أشير إلى القيم التي أُفعِمنا بها منذ التنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة المبكرة، والتي نستمر في تعزيزها طوال حياتنا. ومن شأن هذه القيم تيسير احترام حقوق الغير وحمايتها، حتى في حالة عدم تحديد تلك الحقوق بنفس العبارات.

ني موسك (الجامع)، عمل فني للرسام السوداني إبراهيم الصلاحي، لوحة زيتية على القماش، 1964.

لدى الإنسان وفي إطار كل المجتمعات البشرية، ثمة ميولات لاحترام كرامة الغير، وسعي لتحقيق الوئام الجماعي، والتعايش والترابط المتبادل.

وفي رأيي، كل هذه القيم هي نفس القيم المؤسسة لحقوق الإنسان، رغم أنها غير واردة في حد ذاتها في الخطابات السائدة. لقد أكدت، منذ ثمانينيات القرن الماضي، على ضرورة إرساء ثقافة حقوق الإنسان صلب كل مجتمع، باعتبارها نقطة انطلاق لتعميق وتنمية الإجماع الدولي في إطار الثقافات، وكذلك الحوار بين الثقافات. وهذا ما يتناوله الكتاب الذي أشرفت عليه في عام 1992 والذي يحمل عنوان «حقوق الإنسان من منظور متعدد الثقافات: سعي من أجل تحقيق الإجماع».

> "إن التحول على المستويين الثقافي والاجتماعي صلب المجتمعات هو الذي يشكل القوة المحركة للتغيير، وليس نتيجته"

على المستوى الشخصي، كيف كان لك أن تهتم بحقوق الإنسان من منظور إسلامي؟

خلال ستينيات القرن الماضي، لما تولّد لديّ صراع داخلي بين عقيدتي الإسلامية ومعارضتي للشريعة، أسعفني الحظ بلقاء الأستاذ محمود محمد طه. ووجدت في تفسيراته للإسلام صبغة ابتكارية حثتني على التوفيق بين معتقداتي الدينية والتزامي بدعم حقوق الإنسان.

وكان الأستاذ طه مهندساً سودانياً ومُصلحاً في مجال التصوف الإسلامي. وقد شارك في النضال من أجل استقلال السودان خلال أربعينيات القرن الماضي، كما أنه سُجن بسبب آرائه السياسية في فترة الإدارة الأنجلو-مصرية الاستعمارية. لقد أسس وترأس الحزب الجمهوري، الحزب الذي ناضل من أجل إقامة جمهورية ديمقراطية في السودان. وبعد قضاء مدة طويلة في السجن، عقبتها فترة كرّسها للدراسات الدينية، عاد الأستاذ طه في عام 1951 حاملا تفسيرا إصلاحيا للإسلام.

وعقب تنفيذ حكم الإعدام المأساوي في طه عام 1985، وقمع حركته الإصلاحية في السودان، غادرت وطني إلى المنفى لكني ثابرت في تعميق تفكيري الشخصي وتطبيق المنهجية الإصلاحية التي وضعها أستاذي، ساعياً إلى الإقتداء به.

هل لك أن تحدثنا عن مشروعك «مستقبل الشريعة»؟

يجمع مشروع «مستقبل الشريعة» عدة مواضيع كنت تناولتها في بحوثي الأكاديمية وفي دعوتي إلى إحداث تغيير اجتماعي. لقد تطور تفكيري في هذه المسائل منذ فترة دراستي في القانون، في ستينيات القرن الماضي.

وفي ما يتعلق بالمسار الإصلاحي للإسلام والدراسات الإسلامية، فقد توصلت إلى التوفيق بين التزامي بالدفاع عن مفهوم الدولة العلمانية من منظور إسلامي، مثلما قمت به قبل ذلك فيما يخص الدفاع عن حقوق الإنسان، وبين عقيدتي الدينية.

ودعوت، من خلال موقع ومدونة على الإنترنت، إلى إجراء نقاش عمومي على الصعيد العالمي بشأن الأفكار الواردة في كتابي الصادر عام 2008 تحت عنوان «الإسلام والدولة العلمانية».

وإني على قناعة بأن مفهوم حقوق الإنسان والمواطنة هو أقرب لمبادئ الإسلام من تطبيق ما يدّعي البعض بأنه الشريعة، من طرف دولة إسلامية مزعومة. أعرض في هذا الكتاب الحجج الإسلامية لصالح فصل الدين الإسلامي عن الدولة، وتنظيم الروابط بين الإسلام والشؤون السياسية. كما أبين أن قيام الدولة بفرض تطبيق الشريعة إنما يُعد إخلالاً بتأكيد القرآن القوي على اعتناق الإسلام بشكل طوعي. من الممكن التوفيق بين التقوى الفردية والهوية الدينية الجماعية: حتى أكون مسلماً عن قناعة واختيار حر، وهو السبيل الوحيد كي أكون مسلماً حقا، فإني أطالب بإقامة دولة علمانية تتسم بالحيادية في المجال الديني، وفي نفس الوقت تعزز الممارسة الدينية الحقيقية.

باحث ومؤلف سوداني - أمريكي مختص في القانون، مشهور على الصعيد العالمي، يشغل **عبد الله أحمد النعيم** منصب أستاذ كرسي تشارلز هوارد كاندلر في معهد الحقوق بجامعة إيموري في أتلانتا (الولايات المتحدة)، كما أنه أستاذ مشارك في كلية إيموري للفنون والعلوم، وباحث رئيسي في مركز دراسة القانون والديانت في جامعة إيموري.

الإحسان

خلود، نحت للفنان الأرمني
جيفورغ تاديفوسيان.

© Gevorg Tadevosyan (tadevosyan.org)

هوفهانيس تومانيان

شاعر ولوع بسرد القصص

مقدمة

بقلم كريكور بِليديان

لقد مرّ أكثر من تسعين عاماً على وفاة هوفهانيس تومانيان، غير أن قصائده لم تفقد أيّ ذرة من قيمتها الإبداعية ولا من شحنتها العاطفية ولا من قدرتها على إثارة التفكير. في بداية القرن العشرين، ابتكر هذا الكاتب أسلوبه الشخصي، مستلهما من التقاليد الشفهية الأرمنية، لينظم قصائد قصصية مُقفّاة. ومن بين الآثار الفنية التي استلهمت من شعره، نذكر على وجه الخصوص، أوبرا «أنوش» لأرمين ديكرانيان، وأوبرا «ألماست» لألكسندر سبنداريان.

© Domaine public

هوفهاناس تومانيان حوالي سنة 1910.

تنشر الرسالة هذا المقال مساهمةً منها في الاحتفال بذكرى مرور مائة وخمسين سنة على ميلاد هوفهانيس تومانيان، بمشاركة منظمة اليونسكو، وباليوم العالمي للشعر، 21 مارس.

يقدم هوفهانيس تومانيان (1869ـ1923) في مذكراته في الجزء المخصص لفترة الطفولة، شخصية والده تير ماتيوس، باعتباره لا فقط راعي كنيسة أرمنية يرتل الأناشيد الطقوسية المعتادة، وإنما أيضاً بوصفه شاعراً ينشد قصائد ملحمية، مصحوبا بالتشونكور، الآلة الموسيقية الشعبية ذات الأوتار المشدودة. وإن أردنا معرفة مصدر انبهار تومانيان عندما كان طفلاً بالشعر القصصي وتأثيره في مخيلته، علينا البحث في هذه البيئة التي نشأ فيها.

أما شخصية الأم، سونا، فهي توحي للطفل تومانيان بالمناظر الطبيعية في قرية ديسيغ، مسقط رأسه، الشبيهة، رغم طابعها البري، بمناظر جبال الألب.

«وُلدت أمي وترعرعت في الجبال. لقد كانت بنتاً من الجبال»، هذا ما كتبه لاحقاً هذا الشاعر الذي نظم أبياتا جميلة يصف فيها الجبال الوعرة في أرمينيا، وهي الأبيات التي ننشر مقتطفات منها في نهاية هذا المقال.

وبالإضافة إلى هذه الصورة المثالية، تنسب القصص العائلية أصل الأسلاف إلى أسرة أمراء ماميكونيان العظيمة، الذين تولوا قيادة الجيوش الأرمنية طيلة عدة قرون. وسواء تعلق الأمر برواية عائلية أو قصة أسطورية، فإن تومانيان كان متيقنا من أنها الحقيقية، ولو أن بحثه في أصول سلالته لم تفض إلى النتيجة المنشودة.

قضى الشاعر طفولته في عالم رائع يزخر بالقصص والأساطير التي حفظها عن والده. وقد كان والده مشحونا بطاقة مزدوجة من القداسة والعلمانية.

وهذا ما يفسر كيف استوعب ه. تومانيان في ما بعد سرد القصص كطريقة للتفكير ونقل تقاليد الأسلاف والعادات الشعبية.

بحثا عن مجالات أدبية أخرى

كان على الشاب هوفهانيس، الذي وُلد في فبراير 1869 في قرية ديسيغ بمقاطعة لوري الواقعة شمال جمهورية أرمينيا الحالية، أن يترك هذا الفردوس الأصلي ليواصل الدراسة في ستيبانافان الواقعة على بُعد حوالي أربعين كيلومترا من قريته، ثم في تبليسي، عاصمة جورجيا ومنارة الثقافة في منطقة القوقاز بأسرها (أرمينيا، أذربيجان، جورجيا)، حيث قضى كل حياته تقريباً.

إثر وفاة والده، اضطر على الانقطاع عن الدراسة وغادر مدرسة نيرسيسيان الثانوية. فشرع في العمل ابتداءً من عام 1887 كأمين في أسقفية الكنيسة الأرمنية.

غير أنه ترك وظيفته، مشمئزا من البيئة المتصنّعة التي كانت تسود المكان. بعد ذلك، حاول قدر المستطاع وبكثير من المعاناة الحصول على بعض المداخيل لتسديد حاجيات أسرته المتعددة الأفراد.

إذ أن الفتى تزوج في غضون تلك الفترة وأصبح أباً لعشرة أطفال.

كان هوفهانيس عصامياً مستنيراً ومولعاً بالمطالعة. فانغمس في الثقافة سواء كانت أرمنية أو أجنبية، وقرأ لشعراء روسيين (لرمونتوف، بوشكين)، وألمان (غوتة)، وإنجليز (بايرون، ميلتون، شكسبير)، وأمريكيين (لونغفلو) وغيرهم كثيرون، كما ترجم وكيّف للغة الأرمنية البعض من أعمالهم. وقد تأثر بالفلكلور الغربي والشرقي على حد السواء. في متحف تومانيان في يريفان عاصمة أرمينيا، حيث تم الاحتفاظ بمكتبته وجزء من مَخطوطاته، يمكن تقييم مدى اتساع نطاق مطالعته والاطلاع على جزء من الوثائق التي كان يعتبرها الشاعر ضرورية لِنظم قصائده وتأليف قِصصه النثرية.

ومن المرجح أن تكون مطالعة مؤلفات بوشكين هي التي أكدت أفكاره حول الصياغة الشكلية للقصص، في حين أنه من المحتمل أن يكون *«شبح»* شكسبير هو الذي ثناه عن نشر مسرحياته التي انتهى به الأمر إلى إتلافها.

وما عدى هذا التأثير غير المباشر، فإن الآداب الأجنبية لا تُلمس في نصوصه، ولم تتعد دورها المتمثل في توفير الاحتكاك الضروري في تكوين الشاعر بالنماذج الأدبية المبتكرة، نظرا لغياب مثل تلك النماذج في محيطه المباشر.

العبارة المناسبة

نالت أول مجموعة ألّفها ه. تومانيان التي تحمل عنوان «أشعار» والتي نُشرت في موسكو عام 1890، نجاحاً باهراً في أوساط النقد الأدبي. وفي ما بعد، حملت جميع دواوينه الشعرية نفس العنوان، فيما عدا «نغمات»، وهو ديوان نُشر في تبليسي سنة 1896. ويتناول كل جزء من هذه الدواوين عدداً من القصائد التي سبق نشرها، فضلاً عن قصائد جديدة.

وبعد تلك الفترة الشعرية الوجيزة من 1890 إلى 1896، أضفى الشاعر على قصائده السردية نغمة جديدة غير مألوفة يصعب تصنيفها في أيّ نوع من الأنواع الأدبية الموجودة.

أتت كافة مسرحياته الأدبية الجديدة على شكل سرد شعري مقفّى، منظوم في حلقات ـ وذلك هو القاسم المشترك بينها ـ حيث يتناول المؤلف الخرافات والأساطير والقصص المشهورة الأرمنية أو القوقازية، في صياغة أخرى ترمي بكل وضوح إلى طبعها ببعد رمزي.

عرض أوبرا «أنوش» لأرمان تيغرانيان، بمسرح نانتار-أمنديي (فرنسا)، سنة 2013.

وعندما ألف ه. تومانيان *«الكلب والقطة»*، و*«التجار الذين لم يسعفهم الحظ»*، و*«دير الحمامة»*، أو أيّة قصة أخرى يعرفها كل أرمني عن ظهر قلب منذ سن الطفولة، فإن قدرته الإبداعية لا تكمن في المواد التي يستخدمها بقدر ما تكمن في الطريقة التي ينتهجها في قيادة الأحداث نحو فكرة أساسية لا يكشفها إلّا في نهاية السرد.

وفعلا، تعرض كل قصة حيوانات أو أشخاصا في خضم أحداث تتطور حسب نسق دقيق، لتصل بهم إلى الذروة: العبرة الأساسية المقصودة، في صيغة مختصرة.

وقد جعل هذا المنهج الأدبي المتميّز من ه. تومانيان قصّاصاً لا نظير له، متمكّنا بصفة فائقة من القافية والكلمة على السواء. وهذا المنهج هو ثمرة عمل دؤوب نجد آثاره في المسودات العديدة والصيغ المتتالية لنفس النصوص.

وكثيراً ما يعيد الشاعر كتابة نصوصه حتى تلك التي سبق نشرها، ليحوّرها بشكل عميق، ومن الواضح أنه كان يسعى إلى صياغة التعبير الأكثر بساطة ونجاعة. وخلافا للعديد من نظرائه الذين كانوا يفضّلون الإطناب، فقد جعل ه. تومانيان من الاختصار والتلميح والعبارة المناسبة والدلالة الواضحة منهجاً شعرياً حقيقياً.

© Pierre Grosbois

مرحلة النضج الأدبي

وفي بداية القرن العشرين، أصبح ه. تومانيان متمكّنا بصفة فائقة من أسلوب السرد الشعري المنظوم، لاسيما من خلال قصيدتي *«أنوش»* و*«حصار حصن تموك»*.

وتتألف *«أنوش»*، وهي ملحمة رعوية تدور أحداثها في الأجواء الرائعة لمنطقة لوري، من ستة أناشيد تسبقها مقدمة موسيقية.

وقد ألهمت قصة الحب المنكود هذه، التي تتضمن جميع مقومات مأساة شعرية منظومة، الموسيقار أرمين ديكرانيان (1879–1950) بوجه خاص، الذي ألّف أوبرا تحمل نفس الاسم، وهي أوبرا يتم عرضها بانتظام في دور الأبرا في جميع أرجاء العالم.

أما قصيدة *«حصار حصن تموك»* فهي تتناول واقعة تاريخية: انخِداع زوجة الأمير تاتول بوعود ملك بلاد فارس نادر شاه، وخيانتها لزوجها وتسليمها الحصن إلى العدو. أما المنتصِر، فبعد أن دمّر كل شيء، انقلب على الخائنة وأمر بقطع رأسها. وتكتسي هذه القصيدة بعدا سياسيا أكثر وضوحاً بالمقارنة بقصيدة «أنوش». وقد ألهمت أوبرا *«ألماست»* لألكساندر سبندارِيان (1871–1928). واليوم، ينتصب تمثال برونزي للشاعر بالقرب من تمثال الملحن، في ساحة أوبرا يريفان، وهي الساحة الأكثر رمزية في العاصمة الأرمنية، كأن فيهما تذكير بأن القصص التي خلّدتها مؤلفاتهما ما زالت صالحة في الوقت الراهن.

وفي نفس تلك الفترة، شرع ه. تومانيان في كتابة *«داود الساسوني»* – وهي ملحمة لم ينشر منها سوى مقطعا واحدا – وقد اقتبسها من مؤلَّف مشهور في التقاليد الأدبية الأرمنية، لتبليغ مبادئ اهتم بها كل الاهتمام، ألا وهي: الاحترام المتبادل بين الشعوب، ونبذ كافة أشكال العنف، ورفض جميع أساليب الاضطهاد.

شاعر قادر على التحرك العملي

ظل هذا العمل غير مكتمل، شأنه شأن قصيدته «طائر النار» بسبب أنشطة الشاعر العمومية التي أصبحت تأخذ منه قدراً متزايداً من الوقت.

إذ أن الشاعر ه. تومانيان كان في نفس الوقت رجلا قادرا على التحرك العملي، رافضا أن يقتصر نشاطه على التردد على الأندية الأدبية، حتى ولو أنشأ في بيته نادي «فيرناتون» (الغرفة العليا)، مع مجموعة من أصدقائه الكتّاب مثل أفيتيس أهارونيان، وألكساندر شيرفانزاده، وأفتيك إسّاهاكيان ونيكول أغباليان.

كان نادي *«فيرناتون»* يختلف اختلافا جوهريا عن العديد من الصالونات الأدبية والفنية في تبليسي، إذ كان يهدف إلى توفير فضاء للكتّاب، بما فيهم الذين يزورون المدينة بصفة عابرة، للقاء وتبادل الأفكار.

ومضى ه. تومانيان في تحقيق هذا الهدف من خلال إنشاء رابطة الكتّاب الأرمن في القوقاز. وظلت هذه الرابطة مركزا للأدب الأرمني حتى قيام ثورة أكتوبر 1917.

كما انخرط ه. تومانيان بنفس الحماس في المجال السياسي. وخلال النزاع الأرمني – التتاري الذي نشب عام 1905، اضطلع بدور المفاوض بين الأطراف المتنازعة وتوصل إلى منع انتشار الصراع في مقاطعة لوري. وقد حاول أن يقوم بنفس الدور عند نشوب الحرب الأرمنية – الجورجية التي دامت لفترة قصيرة في عام 1919. وفي تلك الفترة، ظهرت أول أعراض المرض الذي أودى بحياته في مارس 1923. وقد أدى هذا النشاط إلى اعتقاله مرتين، في عام 1908 وعام 1911.

وأثناء جريمة الإبادة الجماعية التي اقترفت بحق الأرمن في عام 1915، نظّم ه. تومانيان عمليات إغاثة للاجئين الأرمن الذي فرّوا من المدن والقرى المدمرة. وتقع هذه التجربة الأليمة في صميم أجمل قصيدتين من تأليفه: *«صلاة الجنازة»* و*«إلى وطني»*، وهي قصائد خالية من المغالاة في العواطف ومن مشاعر البغضاء، رغم أن مثل هذه العواطف والمشاعر كانت سائدة إلى حد كبير آنذاك في هذا النوع من الأدب.

وإن صح قول ه. تومانيان بأن *«الشاعر يُمثل، أولاً وقبل كل شيء، قلب شعبه النابض»*، فيصح أيضاً القول بأن الشعب الأرمني سوف يحتفظ في وجدانه إلى الأبد بالقصائد الخالدة لهذا الشاعر. وبعد مرور سنوات عديدة على وفاته، لا زالت أصداء صوت ه. تومانيان تتردد بين منحدرات الجبال في بلادنا:

الطريق مظلم، الطريق حالك
قاتم هو الليل الطويل
ليل هائل لا نهاية له
نحن صاعدون إلى القمم
في الجبال الوعرة
جبال أرمينيا [...]
وتبحث أنظارنا عبثاً في الظلمات
عن نور
وفجر لا بد أن يبزغ
في الجبال الخضراء
جبال أرمينيا

كريكور بليديان، شاعر وروائي فرنسي من أصل أرمني، وُلد في بيروت (لبنان) ويقيم في باريس منذ عام 1967. ألف دواوين شعرية عديدة ودراسات، فضلاً عن مجموعة من القصص حول سيرته الذاتية باللغة الأرمنية الغربية. ونُشرت أعماله في أرمينيا وفرنسا ولبنان والولايات المتحدة.

النوروز:
براعم يوم جديد

بقلم سلفاتوري دونوفريو

تستند العديد من الطقوس على رمزية براعم النباتات، كما هو الشأن في عبادة أوزوريس الراكدة في مصر القديمة، وفي الاحتفالات بانقلاب الشمس في الصيف في سردينيا، مرورا بالقديسة بربارة لدى الماروني في لبنان، ومراسم تقديم التمنيات في مجتمع بيرامالاي كلار في منطقة تاميل نادو في جنوب الهند. كما أن براعم حبوب القمح والشعير والعدس تمثل محور عيد النوروز، الموافق لرأس السنة بالنسبة للشعوب التي كانت تُمثّل جزءا من الامبراطورية الفارسية، والذي يحتفل به كل ربيع حوالي 300 مليون نسمة عبر العالم. لكن، ما هي رمزية إلقاء البراعم في الماء؟

يتمّ الاحتفال بالنوروز، عيد رأس السنة، في فصل الربيع، في كل من أذربيجان، وأفغانستان، وأوزباكستان، وإيران (جمهورية ـ الإسلامية)، وباكستان، وتركمانستان، وتركيا، وطاجيكستان، والعراق، وقيرغيزستان، وكازاخستان والهند. وقد تمّ تسجيل هذا العيد، سنة 2009، كأحد عناصر التراث الثقافي اللامادّي للبشرية الذي يجب صيانته. علما وأنه تم توسيع التسجيل لدول أخرى سنة 2016. وخُصّص يوم 21 مارس كيوم النوروز الدولي منذ عام 2010.

في معتقدات كافة شعوب العالم، عند حلول سنة جديدة وانتهاء الحقبة الزمنية السابقة، تتعرّض الإنسانية إلى خطر الفناء. لذلك وجب آداء طقوس تسمح بتجاوزها. من هنا جاءت أعياد رأس السنة التي كثيرا ما يُحتفل بها عند قدوم الربيع الذي يُبشّر بعودة سريان الحياة في شرايين الطبيعة . نوروز، الذي يعني حرفيّا اليوم الجديد، هو واحد من هذه الأعياد.

أصل هذا العيد الذي يعود إلى ألفي سنة على الأقل، لا زال غامضا، لكنه بقي تقليدا حيّا في كل الدول التي كانت تنتمي إلى الامبراطورية الفارسية.

في إيران، قلب بلاد فارس القديمة، يبدأ الإعداد للاحتفالات قبل موعد رأس السنة بأسبوعين أو ثلاثة: تشرع النساء في «خض» بيوتهن، أي تنظيفها بالكامل. وفي يوم الثلاثاء الذي يسبق العيد، يُنظّم الرجال ألعابا تتمثّل في القفز على النيران. أما الأطفال، فيضعون أقنعة ويذهبون في جماعات صغيرة لطرق أبواب المنازل، حيث تنتظرهم الحلويات وبعض النقود. يُذكّرنا هذا التقليد بهالوين، ذلك العيد الذي أصبح اليوم مُرتبطا بعيد القديسين في العالم الأنجلو ساكسوني والسلتي، كما يُذكّرنا بكوليدا، العيد السلافي الذي اندمج مع مرور الزمن في الاحتفال بعيد ميلاد المسيح.

لنعد إلى إيران، حيث يتمّ الإعلان عن بداية الاحتفالات، يوم الاعتدال الربيعي، على وقع طبل حاجي فيروز، وهو بمثابة مُضحك الملك ذي البشرة المطلية بالسواد.

في كل بيت، تنتصب مائدة «الأشياء السبعة» (هافت سين)، بما في ذلك بيوت الإيرانيين القاطنين في المهجر. كل أسماء الأشياء السبعة تبدأ بحرف السين: السبزاج (براعم القمح والشعير والعدس و بذرات أخرى)، السير (الثوم)، السيب (التفاح)، السماق، السنجد (العناب)، السركه (الخلّ)، والسامانو (عصيد براعم القمح المطحونة).

أحيانا، تُضاف على المائدة مرآة (إيني)، ومرطبات أو قطع من النقود. كما يجد كتاب القرآن مكانه على الطاولة (بعد أن عوّض الأفستا، الكتاب المُقدّس للديانة الزردشتية)، وأيضا مؤلفات شعرية، مثل ديوان حافظ، ذلك الشاعر الصوفي المشهور بحفظه للقرآن عن ظهر قلب، والذي كثيرا ما كان يُستعمل للتنجيم.

وجبة الطعام العائلية تتكون من سمك وأرز، أما الطبق الرئيسي فيبقى السبزاج المطبوخ بالبراعم النابتة عن البذور التي زرعتها النساء في صحون داخل المنزل، عند بداية الاحتفالات، وقامت بسقيها بانتظام حتى تكون مخضرة يوم نوروز.

لماذا هذه البراعم؟

ليس من السهل استعادة أصول الطقوس المرتبطة بالبراعم. وتعود أقدم مظاهرها المؤكدة إلى «أسرّة أوزوريس» (أو أوزوريس الراكد) في مصر البطلمية، في تقليد يتمثّل في وضع تماثيل صغيرة في القبور، في وضع ممدود، ترمز إلى آلهة الأموات وانبعاث الحياة الخالدة. وكانت تلك التماثيل مصنوعة من عجين طيني، مخلوط بالماء وحبوب الشعير.

في اليونان القديمة، في القرن الخامس، يتم غرس الحبوب في حاويات من الطين أو من السلال، تُسمّى حدائق أدونيس. ولما تينع البراعم، تستعمل في طقوس أدونيس التي تقام في منتصف يوليو من كل سنة، تكريما لعاشق آلهة الحب أفروديت.

في المقابل، لا يُوجد أي أثر لطقوس البراعم في الأفستا، ولا في الكتابات الفارسية المتعلقة بالنوروز، ولا حتى لدى الفارسيين معتنقي الديانة الزرادشتية الذين فرّوا بأفواج متتالية إلى الهند، بسبب الغزو العربي-الإسلامي إلى فارس، في الفترة ما بين القرنين السابع والعاشر.

مع ذلك، بقيت البراعم اليانعة تحتل الصدارة على مائدة «الأشياء السبعة» التي يجتمع حولها، في كل ربيع، حوالي 300 مليون نسمة عبر العالم.

ويجوز الاحتمال بأن التقليد المتصل بالبراعم قد انتشر انطلاقا من جنوب الهند، حيث لا يزال استعمالها ساريا في الاحتفالات. وحسب عالم الأجناس الفرنسي لوي دومون، لدى شعب براماليا كالر في منطقة تاميل نادو، تنظم النساء اللاتي يُردن تحقيق أمنياتهن، موكبا يحملن فيه أوعية مليئة بأشياء مختلفة، من بينها براعم *«أينعت في الظلام من سبعة أو تسعة بذور، طيلة أسبوع، في إناء عادي»*.

© Nozim Kalandarov/TASS/ABACAPRESS.COM

الاحتفال بالنوروز حذو قلعة مدينة حصار في طاجيكستان، سنة 2018.

في التقليد اليهودي-المسيحي

وتحتل البراعم أيضا مكانة مركزية في شتى الاحتفالات في أوروبا. من تقاليد منطقة بروفانس الواقعة جنوب فرنسا، في يوم 4 ديسمبر الموافق ليوم القديسة بربارة، يتم زرع حبوب قمح من الحصاد السابق في ثلاثة أكواب، كي تنمو لتُوضع على مائدة «العشاء الفاخر» مساء يوم 24، ثمّ في مهد الميلاد. نفس التقليد يُوجد أيضا في لبنان، عند المسيحيين المارونيين ذوي الأصل العربي، وفي جزيرة صقلية، عند سكان كاستلبونو في مقاطعة باليرمو.

لسكان صقلية عادة أخرى تتمثّل في استعمال البراعم يوم 19 مارس، لإعطاء رونق لـ«طاولات سان جوزيف» التي توضع فوقها أطباق يصل عددها إلى 101، للاحتفاء في ذات الوقت بفضائل الفقر التي يُمثّلها القدّيس، وبفضائل الثراء التي يُمثّلها القمح والخبز بالخصوص الذي يتمّ إعداده بالمناسبة حسب وصفات في غاية الإتقان.

وفي جنوب إيطاليا، في يوم الخميس المُقدّس الذي يسبق عيد الفصح، تُوضع البراعم في مذبح المستودع في الكنيسة، حيث يُحفظ القربان المقدس حسب الطقوس الكاثوليكية. أما المجتمع اليهودي في روما، فهو يواصل تقليد استعمال البراعم الذي يعود إلى القرون الوسطى، عند الاحتفالات بروش عشانه وكيبور.

وتنتهي جولتنا الأوروبية في 21 يونيو، يوم انقلاب الشمس الصيفي، في مدينة باري سردو الصغيرة الواقعة في سردينيا. نشاهد أفواجا من النساء يحملن على رؤوسهن براعم، تُسمّى «نينيري»، في حاويات يعلوها هيكل من القصب مُحاط بخبز مُرصّف بمهارة وغلال موسمية. وتسير النساء عبر الأنهج في اتجاه البحر، حيث يُلقين النينيري.

اليوم الثالث عشر

في الهند الجنوبية أيضا، تسير النساء في موكب، وهن يحملن على رؤوسهن البراعم، وفي نهاية المسار الاحتفالي، يرقصن حولها قبل غمرها في الماء.

وفي اليونان القديمة، يتم رمي حدائق أدونيس في النوافير أو في البحر، بعد حملها فوق السطوح، تماما كما يفعل اليوم الإيرانيون من ذوي الديانة المزدكية في يزد، وفي غيرها من المناطق الإيرانية.

في إيران، وفي اليوم الثالث عشر الذي يلي النوروز، يذهب الجميع لقضاء يوم في الهواء الطلق حيث يأكلون ويلعبون ويُغنّون ويُؤدّون آخر مرحلة من طقوسهم: رمي البراعم في المياه الجارية... وذلك، بعد أن برمت الفتيات ضفائر من بعض البراعم، معبرة عن أملهن في الزواج أثناء السنة الجديدة.

يعتبر النوروز من بين الطقوس التي تمثل قاسما مشتركا بين مجتمعات يفرقها المكان والزمان، ويجمعها اعتبار العودة الموسمية للنبات رمزا لانبِعاث الحياة من جديد. وإذا كان بروز البراعم يرمز إلى التجديد، فإن البذرة تحمل في طياتها سلبيات السنة المنقضية. وهذه الخصوصية المزدوجة للبراعم هي التي تفسر إرادة التخلص منها، لتجرفها المياه.

سلفاتوري دونوفريو أستاذ بجامعة باليرمو (إيطاليا) وعضو بمخبر علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية التابع لمعهد فرنسا حيث يتولّى مهمة منسق لِكراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ولفريق العمل حول «أرشيف رأس السنة في باريس». وهو مؤلف كتاب «صباح الآلهة. من النوروز الإيراني إلى الفصح المسيحي»، 2018.

التصرف في حالة ارتياب:

مسألة الأمن المائي

بقلم هوارد س. ويتر

تُؤثّر المخاطر المُتّصلة بالموارد المائية على 80% من سكان العالم، وتلوح في أفق سنة 2070 أزمة مائية جسيمة. والموقف الداعي إلى التصرف على النحو المعتاد غير مقبول. إن التصرّف في المياه شأن علمي، لكنه أيضا شأن سياسي، وهو مرتبط بالحوكمة وبالقيم المجتمعية. علم جديد يتجاوز التخصصات يفرض نفسه اليوم بإلحاح.

تنشر *الرسالة* هذا المقال مساهمة منها في الاحتفال باليوم العالمي للمياه، 22 مارس.

في القرن الحادي والعشرين، سوف تخضع الموارد العالمية من المياه الصالحة للشراب إلى ضغوطات غير مسبوقة، ذلك أن ارتفاع عدد سكان العالم والتطور الاقتصادي سوف يؤديان إلى استغلال مُتزايد للموارد المائية. وقد تم تسجيل انخفاض في تدفق الأنهار، واختفاء البحيرات والمناطق الرطبة وانخفاض في منسوب المياه الجوفية، جراء الاستعمال المُكثّف للمياه.

المثال الأكثر دلالة على هذه الظاهرة هو الاختفاء شبه التام لبحر آرال، في آسيا الوسطى، الذي كان يعد سابقا البحيرة المالحة الرابعة في العالم. لقد تصحّر في غضون أربعين سنة ولم يعد يمسح سوى 10% من مساحته الأصلية بسبب استخراج المياه من المنابع التي كانت تنصب فيه.

بصفة عامة، فإن تداعيات النشاط البشري على الأنظمة الطبيعية قد تفاقمت إلى درجة أن عبارة *«أنثروبوسين»* صيغت للتعريف بالعصر الجيولوجي الحالي [انظر عدد مجلتنا أهلا بكم في الأنثروبوسين، ابريل-يونيو 2018]. كما أن التحضّر (أكثر من نصف سكان العالم يعيشون في المدن)، وإزالة الغابات، والتنمية الفلاحية (1،5 مليار هكتار من مساحة الكرة الأرضية)، كان لها انعكاسات هامة على خصائص الماء وكمّياته.

تهديدات على الصعيد العالمي

يتعرّض حوالي 80% من سكان العالم إلى مستويات مرتفعة من التهديدات من حيث الأمن المائي. وتُمثّل المناطق الحضرية والفلاحة مصدرين لتلوّث المياه، ممّا يُهدّد الحياة في الوسط المائي ويضغط على النظم البيئية للماء العذب. في سنة 2010، وحسب تقديرات الأخصّائيين، يبلغ عدد أنواع المياه العذبة التي انقرضت، أو التي أصبحت مُهدّدة بالانقراض، ما بين 10 و20 ألف نوع.

ومن ناحية أخرى، سوف يتحتّم، في أفق 2050، الزيادة في إنتاج المواد الغذائية بنسبة 70% للتمكن من الاستجابة إلى الطلب، حسب الدراسات المستقبلية التي أنجزتها سنة 2012 منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة. وبالتالي، لا مناص من احتداد الضغوطات التي تُمارس على المحيط المائي، لتلبية احتياجات عدد متزايد من سكان العالم، في مجالي التغذية والطاقة.

وحسب دراسة أُنجزت سنة 2013 حول ندرة المياه، والتي تمّ نشرها في المجلة العلمية هيدرولوجي آند إيرث سيستم ساينس (الهيدرولوجيا وعلوم نظام الأرض)، فإن حوالي نصف سكان العالم سوف يعيشون وضعية توتّر مائي خطير بين 2071 و2100.

لقد تسببت التغييرات التي أدخلها الإنسان على البيئة في تفاقم تهديدات الماء على حياته، وعلى ممتلكاته وعلى البنية التحتية عموما، كما بيّنته فيضانات هيوستن في تكساس (الولايات المتحدة) سنة 2017.

عمل فني من مجموعة «فايند أو واي أور مايك وان»، للمُصوّرة السويسرية-الروسية أناستازيا ميتيوكوفا، أُنجز من المواد المُتوفّرة: صور قديمة، كاميرا واب، كتب، جرائد، بلور.

في تلك المنطقة التي تطوّرت رغم مخاطر الفيضانات المعروفة، تضرّرت حوالي 300.000 من المنشآت ممّا أدى إلى إخلاء مئات الآلاف من الأشخاص وتسبب في خسائر مادّية قُدّرت بـ125 مليار دولار.

في عالم مترابط أكثر فأكثر، لا تقف انعكاسات الفيضانات والجفاف على المستوى المحلّي. وقد خلف الفيضان الذي شهدته تايلاندا سنة 2011 خسائر اقتصادية، جراء اضطراب مسالك التموين الإلكترونية العالمية، بلغت 46.5 مليار دولار حسب تقديرات البنك العالمي. كما أن موجة الحر التي عمت روسيا سنة 2010، والتي أثّرت على إنتاج القمح وعلى أسعار المواد الغذائية العالمية، قد تكون، حسب صحيفة *نيي إيكونوميست*، (فبراير 2012)، أحد عوامل الاضطرابات الاجتماعية المرتبطة بـ«*الربيع العربي*».

وأدّى احترار المناخ في الفترة الأخيرة إلى تغيّرات عميقة في البيئة المائية. من ذلك النسق السريع لتقلّص أنهار الجليد في سلسلة الجبال الصخرية الكندية، (ومن المنتظر أن تضمحلّ تماما في نهاية القرن)، علما وأنها تُغذّي أهمّ الأنهار التي تصب في المحيطات الهادئ والأطلسي والشمالي.

كما تدنت غابات غرب كندا أساسا بسبب اجتياحها من طرف حشرات تتغذى من الخشب، وقد تكاثرت تلك الحشرات بفعل ارتفاع درجة الحرارة بصفة غير عادية في فصل الشتاء.

ولئن كانت المنطقة الغربية لكندا مثالا للوضع على الصعيد الجهوي، يجدر التذكير بأن نصف سكان العالم يعتمدون على مياه المناطق الباردة التي هي معرضة لتأثير الاحترار المناخي بصفة مماثلة.

> *«التزام كافة الأطراف الفاعلة هو ضرورة وليس خيارا»*

© ECAL / Anastasia Mityukova

من أجل دعم الروابط بين العلم والسياسة

ضمان الحصول على الماء وعلى التطهير للجميع وتأمين إدارة مستدامة للموارد المائية، ذلك هو الهدف السادس من أهداف التنمية المستدامة المنصوص عليها في جدول أعمال 2030 الذي اعتمدته منظمة الأمم المتحدة في سبتمبر 2015.

وفي إطار نشاطها الرامي إلى تحقيق هذه الأهداف، نظّمت اليونسكو، في 14 يونيو 2018، الندوة الأولى حول القاسم المشترك بين علوم المياه والمجال السياسي، التي جمعت أحد عشر وزيرا ونائبا برلمانيا، بالإضافة إلى ممثلي الدول الأعضاء والخبراء. والهدف من هذه الندوة هو النظر في كيفية مساهمة البرنامج الدولي للمياه التابع لليونسكو في بلورة حلول ترتكز على العلم، وسيَاسات ناجعة وممارسات جيّدة. ويعد هذا البرنامج الأرضية الوحيدة المشتركة بين الحكومات صلب منظمة الأمم المتحدة المُخصّصة للبحث وتدعيم القدرات والتصرّف في الموارد المائية.

والندوة هي الأولى في سلسلة الندوات التي ستلتئم كل سنتين في إطار الدورات المنتظمة للمجلس الحكومي المشترك للبرنامج الدولي للمياه. وسوف تعرض نتائجها خلال اجتماع موازي في إطار المنتدى السياسي رفيع المستوى حول التنمية المستدامة الذي سيلتئم من 9 إلى 18 يوليو 2019 بمقر الأمم المتحدة في نيويورك.

وسوف تعقد اليونسكو في مايو 2019 مؤتمرا شاملا حول المياه.

وحسب دراسة نشرت في مجلة *كليماتيك شانج* (التغيّر المناخي) في فبراير 2016، سوف يتعرّض في 2050 ما بين 0،5 و3،1 مليار نسمة إلى احتداد نقص المياه بفعل التغيّر المناخي.

استراتيجيات جديدة

ما عسى أن تكون ردة فعل العلماء المختصين في الموارد المائية، حتى يأتوا بالمعارف والآليات للمساعدة على اتخاذ القرارات الضرورية لرفع هذه التحدّيات؟ إن اكتفى هذا المجال العلمي بتطور روتيني وبخطى مُتأنّية، فلن يكون في مستوى المهمّة. والموقف الداعي إلى ترك الأوضاع على حالها غير مقبول. لقد أصبح من الضروري إيجاد مقاربة استراتيجية جديدة على الصعيد العالمي.

علينا أولا تعميق فهمنا للمُحيط المائي في سياق التحوّل غير المسبوق الذي طرأ على البيئة والمجتمع. ولهذه المسائل بعد متعدد الاختصاصات. على سبيل المثال، يتطلب التنبؤ بفيضان الأنهار في غرب كندا معرفة كيفية تفاعل الأنظمة البيئية والفلاحة مع تغيّر المناخ.

وحتى نتمكن من وضع توقعات لتطوّر المناخ، لا بدّ من فهم التغيّرات التي تطرأ حاليا على التبادل بين سطح الأرض والجو، مثل انتشار الأشجار وكثافتها في تونْدرا الشمال: تتكاثر النباتات، وخاصّة منها الشّجيرات، التي من شأنها أن تمتصّ أكثر فأكثر الطاقة الشمسية وتساهم بذلك في احترار المناخ.

الشيء الوحيد المُؤكد بالنسبة للمستقبل هو أن مسألة المناخ وتفاعلاته مع النمو البشري على المستويين الاقتصادي والاجتماعي سوف تبقى غير مؤكدة. لذلك لا بد من التصرف بأخذ هذا الغموض في الاعتبار. ونظرا إلى تعقيد الأنظمة المائية وارتباطها المتبادل بالأرض، والطاقة والأنظمة الغذائية، على عديد الأصعدة من المحلي إلى العالمي، فإن التصرف في غياب التأكد سوف يتطلّب استراتيجيات أكثر ملاءمة ومرونة من ذي قبل. لم تعد أمثلة الماضي صالحة حتى نستعين بها كدليل موثوق للتنبؤ بالمستقبل.

علينا أن نحلل مواطن الضعف وأن نتبنّى استراتيجيات تدفع إلى الصمود أي قدرة نظام ما على امتصاص الصدمات، والمواصلة في التجدّد دون أن تتغير حالته.

منهجية متعددة الاختصاصات

هناك اتفاق واسع، مثلا، حول وجود فجوة بين الإنتاج العلمي في مجال تقييم آثار المناخ، وتخطيط التصرف في الموارد المائية على المدى الطويل، أو التكيّف المناخي. بصفة عامة، حتى يكون العلمُ قادرا على تقديم حلول ناجعة، يجب أن يتناول المسائل التي تهمّ أصحاب القرار، وأن يوفّر لهم نتائج وأدوات في الوقت المناسب وبشكل قابل للاستغلال، تتضمن إسهامات المستعملين. وهذه النقطة الأخيرة هي التي تفضي على النتائج العلمية المصداقية والشرعية الضرورية لحل المشاكل الخلافية على المستوى السياسي والهامة على المستوى الاجتماعي، التي يثيرها اليوم التصرف في الموارد المائية.

وهذا يدل على مدى أهميّة اعتراف العلماء بأن التزام كافة الأطراف الفاعلة إنما هو ضرورة وليس خيارا. ولا بد أن يتضمّن النموذج الجديد للبحث العلمي معرفة معمّقة للتحولات الاجتماعية التي تحدث بالتوازي مع التزام فعّال – ومتبادل – للعلم والسياسة.

ذلك أن الأطراف المحلّية المعنية تُمثّل مصدرا هامّا للمعرفة. فالشعوب الأصلية، مثلا، مُتمكّنة من معارف تناقلتها أجيال متتالية عن أرضهم وتفاعلاتها مع القوى الطبيعية [انظر ملف زاوية كبرى في هذا العدد]. ولا بد أن يستفيد العلم من هذه المعارف. لذلك، وفي إطار برنامج *غلوبال واتر فيوتشرز* (مستقبل الماء الشامل) في كندا، قمنا في شهر أبريل 2018 ببعث مشروع مع جماعات السكان الأصليين في كندا للعمل معا على وضع استراتيجية بحث تُساعد على حل المشاكل المتعلقة بالماء التي تُواجهها تلك الجماعات.

وفي آخر المطاف، تبقى التحديات الكبرى للأمن المائي متعلقة بالحوكمة. إن تحديد الجهة التي تتّخذ القرارات وكيفية اتخاذها هي إذن مسألة حاسمة.

إن كان فهم التغيّرات المائية والتكهّن بها بطريقة علمية يطرحان تحديات علمية هامة، فإن التحديات التي يطرحها التصرّف في الموارد المائية لا تقل أهمية. وبما أن الأمن المائي في القرن الحادي والعشرين مسألة علمية ومجتمعية في آن واحد، من الضروري إيجاد مقاربة جديدة تجمع بين اختصاصات متعددة، وتكون قادرة على الربط بين العلوم الصحيحة والطبيعية والعلوم الاجتماعية.

وخلاصة القول، إن أردنا التحسب لأزمة مائية حادّة، فنحن بحاجة إلى تنمية معارف علمية جديدة لإدراك تطوّر الأنظمة المائية المتأثر بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة، وإلى وضع أشكال جديدة للتعاون العلمي يجمع بين إختصاصات متعددة لاستيعاب ترابط هذه الأنظمة وتداعياتها المجتمعية، وإلى إدماج المعارف المحلية في البحث العلمي للاستجابة على أحسن وجه لاحتِياجات المنتفعين، وإلى وضع آليات أكثر نجاعة لترجمة المعارف العلمية إلى عمل مجتمعي فعلي.

هوارد س. ويتر (المملكة المتحدة) خبير دولي في المياه والموارد المائية. وهو أستاذ بمعهد البيئة والاستدامة بجامعة ساسكاتشيوان بكندا، وأستاذ فخري في علوم المياه بالإمبيريل كولدج في لندن، المملكة المتحدة.

تحويل المستقبل

التوقع في القرن 21

ردمك 978-92-3-600075-6

276 صفحة، 234x156 مم

منشورات اليونسكو/مركز أسبار للدراسات والبحوث والإعلام

30 يورو

توقع المستقبل مفيد للبحث عن طرق أفضل لتحقيق الاستدامة والشمول والازدهار والرفاهية والسلام. بالإضافة إلى ذلك، فإن الطريقة التي يتم بها فهم المستقبل واستخدامه تتغير في جميع المجالات تقريبًا، من العلوم الاجتماعية إلى الحياة اليومية.

يقدم هذا الكتاب نتائج البحوث الهامة التي أجرتها اليونسكو مع عدد من الشركاء لاكتشاف وتعريف وممارسة توقع المستقبل في جميع أنحاء العالم اليوم. ويستخدم مفهوم «تعليم مادة المستقبل» كأداة لتحديد فهم الأنظمة والعمليات الاستباقية - المعروف أيضًا باسم «مادة التوقع».

التقرير العالمي لرصد التعليم 2019 (ملخص)

الهجرة والنزوح والتعليم: بناء الجسور لا الجدران

74 صفحة، 280 x 215 مم، PDF

متوفّر على الموقع
http://unesdoc.unesco.org

وفقا للتقرير العالمي لرصد التعليم 2019، ارتفع عدد الأطفال المهاجرين واللاجئين في سن الدراسة في العالم بنسبة 26% منذ سنة 2000، ويمثل عددهم اليوم ما يملأ نصف مليون قاعة دراسة.

كما يُلقي التقرير الضوء على إنجازات الدول وإخلالاتها في ما يتعلّق بحق الأطفال المهاجرين واللاجئين في التمتّع بتعليم جيّد، وهو حق يستفيد منه، في آن واحد، المُتعلّمون والتجمّعات التي يعيشون فيها.

التقرير العالمي للعلوم الاجتماعية

تحدي حالات عدم المساواة: مسارات من أجل عالم يسوده العدل

ردمك 978-92-3-600049-7

362 صفحة، 215×280 مم

45 أورو

أصبحت مسألة اللامساواة تحتل مرتبة مركزية في مجالات اهتمام المسؤولين السياسيين في جميع أنحاء العالم، كما أنها أصبحت موضوعا أساسيا في البحوث في العلوم الاجتماعية.

يعتمد هذا التقرير على معارف حوالي مائة من الأخصّائيين في العلوم الاجتماعية والمفكرين المؤثّرين من كافة أنحاء العالم، من مختلف الاختصاصات، ليعرض الحلول التي من شأنها تغيير حالات عدم المساواة على جميع الأصعدة، من القاعدة إلى الحوكمة العالمية.

أصوات متعددة، عالم واحد

تصدر *رسالة اليونسكو* باللغات الرسمية الست للمنظمة،
وكذلك بالبرتغالية والإسبيرانتو والسردينية والصقلية.
ندعوكم لمطالعتها والتعريف بها عبرالعالم.

https://en.unesco.org/courier • https://fr.unesco.org/courier • https://es.unesco.org/courier • https://ru.unesco.org/courier • https://ar.unesco.org/courier • https://zh.unesco.org/courier